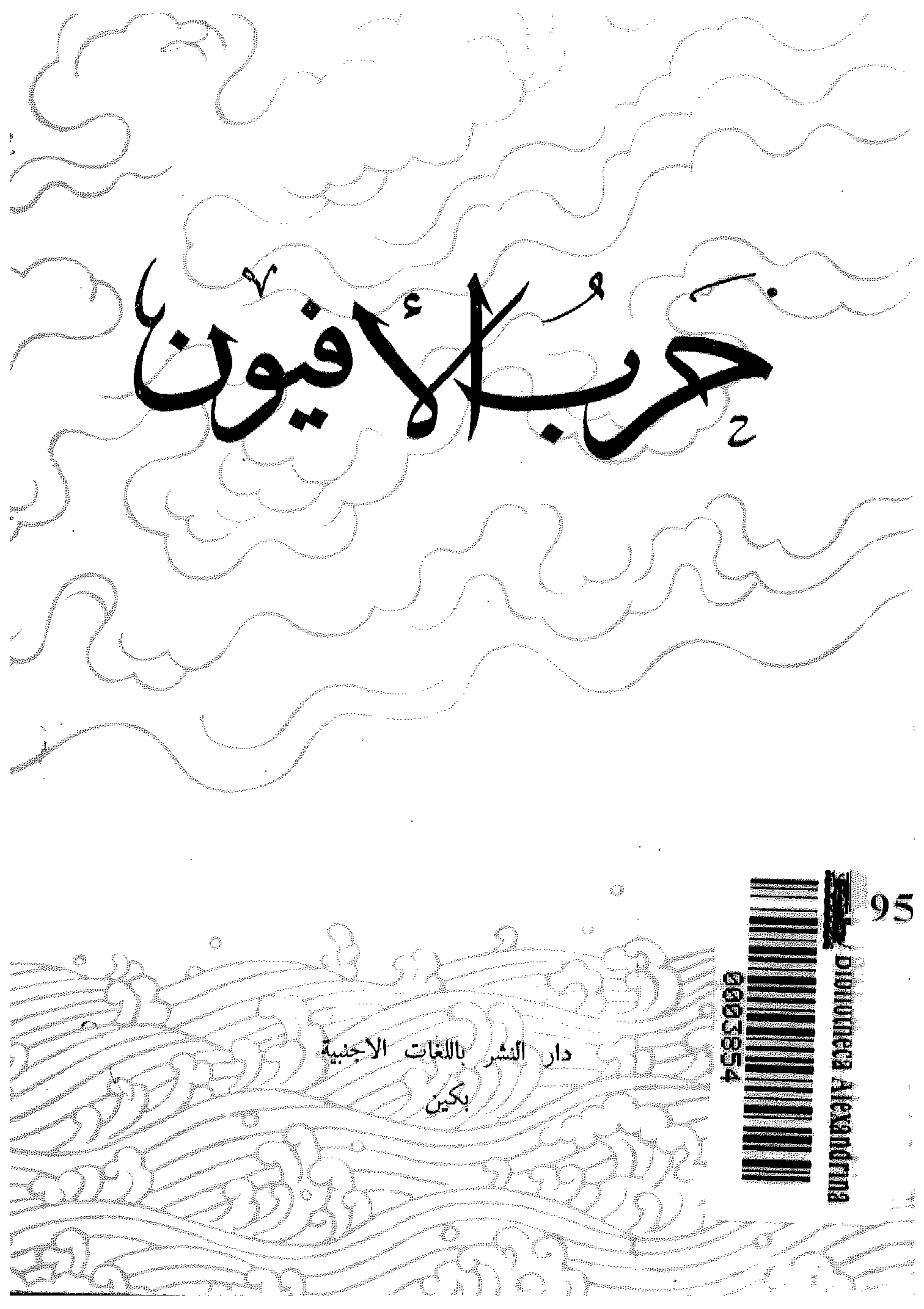


حرب الأفيون

دار النشر باللغات الأجنبية

بكين

حرب الأفيون

قسم تأليف «سلسلة كتب تاريخ الصين الحديث»

دار النشر باللغات الاجنبية
بكين

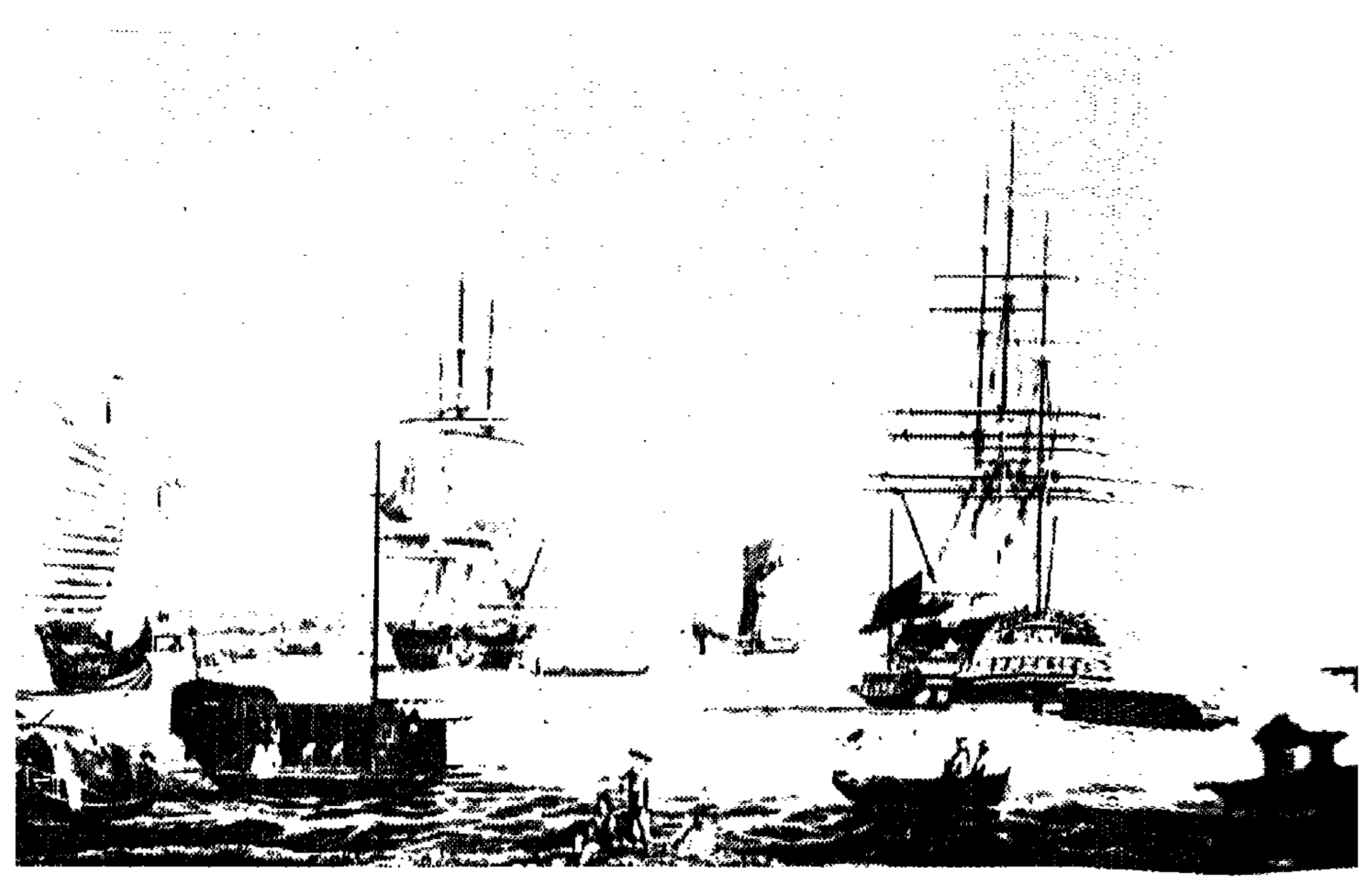
الطبعة الاولى . . . . عام ١٩٧٩

طبع فى جمهورية الصين الشعبية

كلمة الناشر

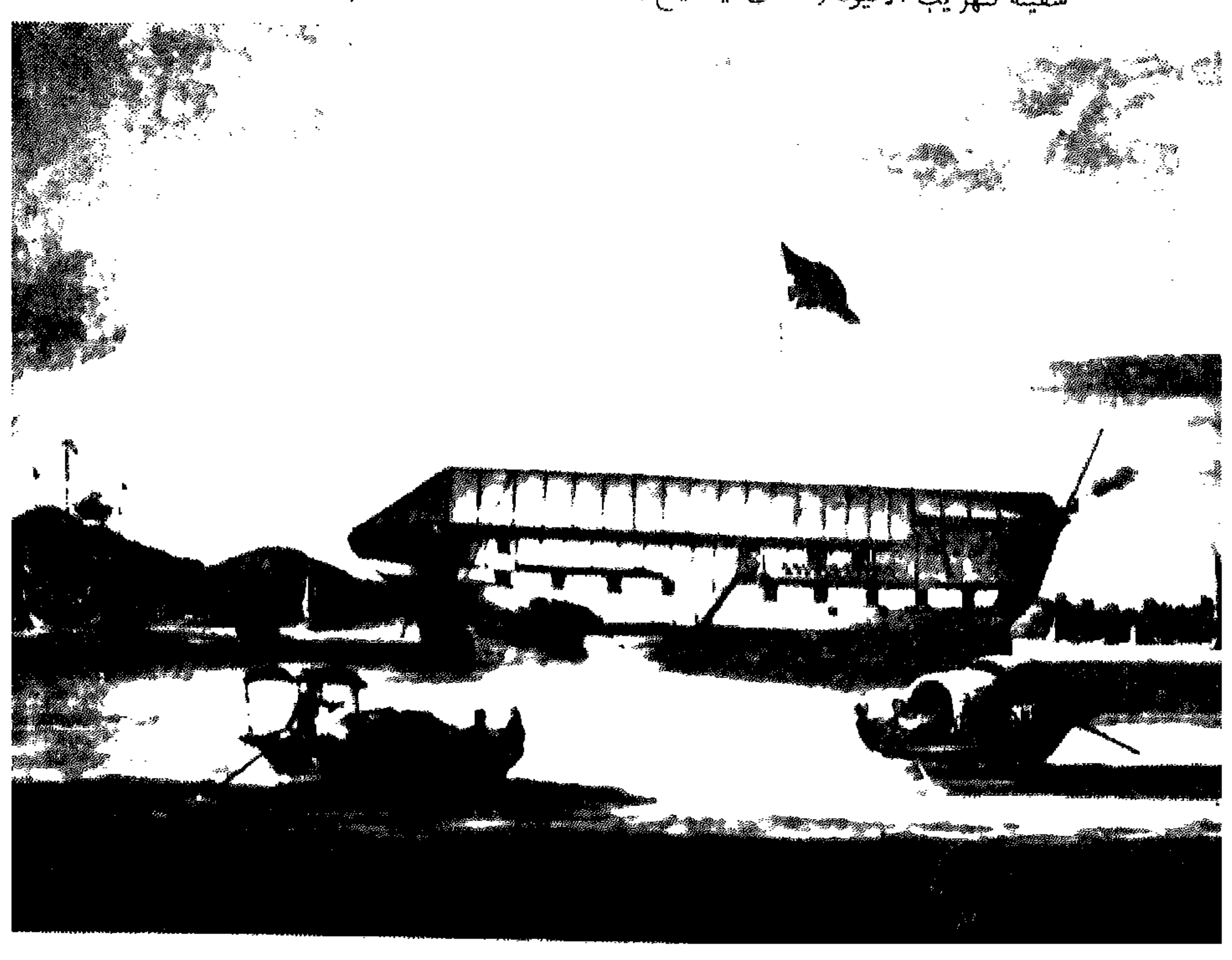
« حرب الافيون » كتاب ترجمناه من « سلسلة كتب تاريخ الصين الحديث » الصادرة عن دار الشعب بشانغهاى ، وسنتابع ترجمة كتاب « حركة يى حه توان » (١٩٠٠ - ١٩٠١) ، علما بأن كتب « مملكة تايبينغ » (١٨٥١ - ١٨٦٤) و « الحركة الاصلاحية عام ١٨٩٨ » و « ثورة ١٩١١ » قد تمت ترجمتها من قبل .

وهذه الكتب جميعها ألفها بعض الرفاق فى كليتى التاريخ بجامعة فودان وجامعة المعلمين بشانغهاى ، ولقد ادخلت بعض التعديلات الطفيفة على النصوص المترجمة .



ميناء هوانغبو بالقرب من قوانغتشو ، عام ١٨٣٥

سفينة لتهريب الافيون رست فى لينغدينغ بالقرب من قوانغتشو ، عام١٨٣٩

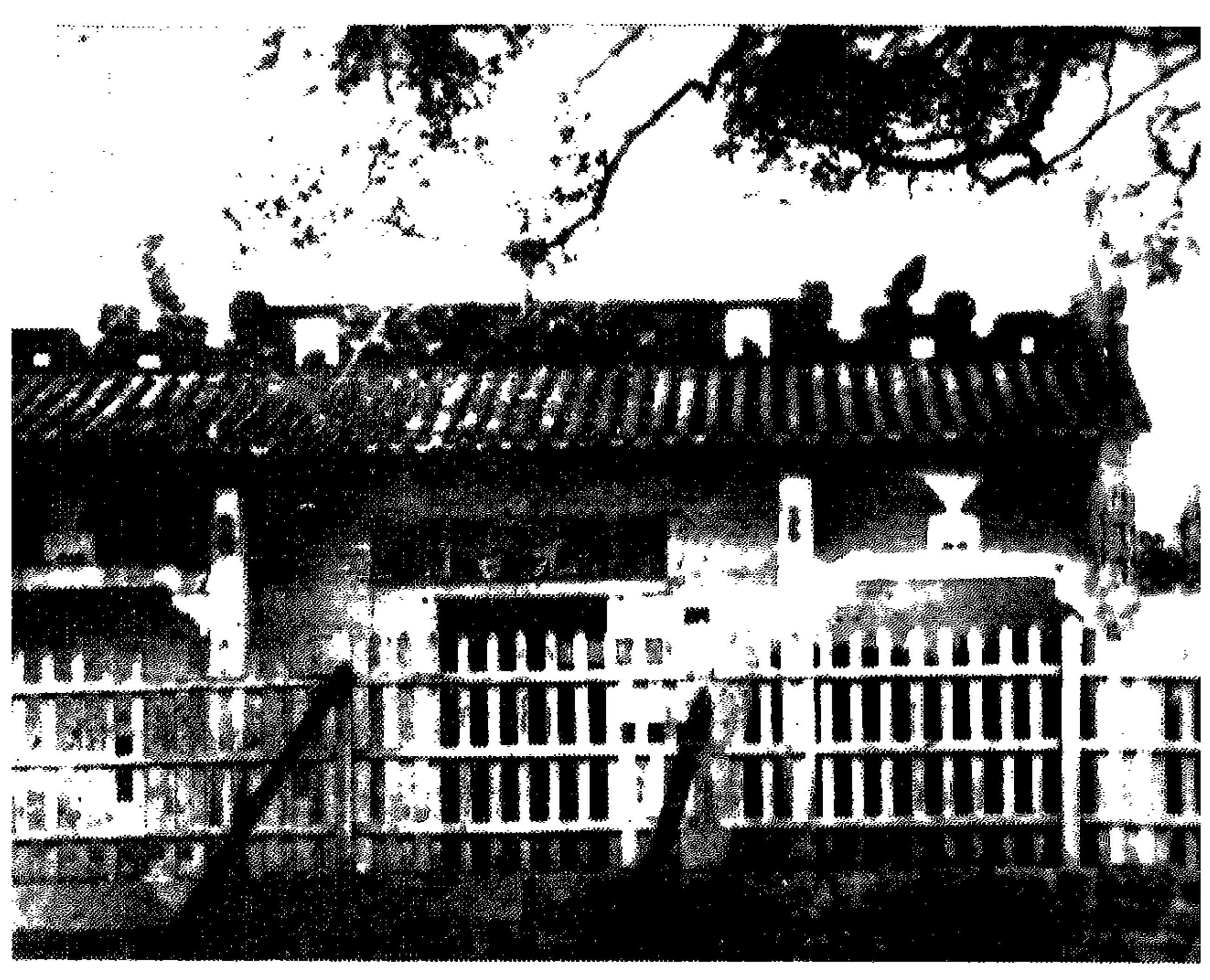




قوات حكومة تشنغ البحرية في معركة ضد السفن البريطانية
الغازية بالقرب من قوانغشو ، ٧ كانون الثاني ١٨٤١

آثار حصن هومن

فع فى حصن هومن بقوانغتشو



المعبد القديم فى سانيوانلى بالقرب من قوانغتشو ، حيث ادى
القرويون القسم على مقاومة الغزو البريطانى ، عام ١٨٤١

三元里西村、南岸、九十餘鄉、衆耆老、為不共戴天、誓滅
英逆事、照得向來英逆素不安分、屢犯
天朝、昔攻沙角炮台、戕害官兵、
聖上深仁厚澤、恕加誅、且亦懷柔、彼尚不知感 恩、猶復包藏禍心、
深入內地、到處施火箭、燒害居民、攻及城池、目無忌憚、
欽差大臣、具城、廂內外遭殃、議約戢兵安民、英逆理宜悔禁
好貴、即休、胡乃貪勝不知輸、得尺則尺、得寸則寸、貪縱
兵卒、擾亂村莊、搶戮耕牛、傷我田禾、踐蹂我祖墳、淫辱
我婦女、鬼神共憤、天地難容、我等所以奮不顧身、團
我律於北門、斬首首異衆、南岸、爾等逆黨、試思此時、
若非我 府尊為爾解此危、爾逆其得保首領以下舉乎、
今聞爾出示當道、妄為 將軍大人無功、揚言於衆、與
百姓中貴其軍機、我此地無人、實甚、我等聞是氣憤成
衆、志除妖孽、飽饞之義士奮助兵糧、祈勳之農夫
利器、務使鬼子無以影留存、鬼船無片帆回國、而後已、求
列爾某下日交戰、為此特示、

بيان اهالى سانيوانلى باعلان الحرب ضد المعتدين البريطانيين

بزات وسيف واختام واشياء اخرى

للغزاة البريطانيين غنمها اهالى سانيوانلى



رسم كاريكاتوري يبين الغزاة
البريطانيين وهم يقومون بأعمال السلب



جمعية شنغبينغشهشيوه التى اسسها اهالى سانيوانلى ، مركز قيادة مقاومتهم ضد العدوان البريطانى

الفهرس

١ــ الغزاة البريطانيون الطماعون

لقد حددت حرب الافيون (١٨٤٠ ــ ١٨٤٢) التى قاتل فيها الشعب الصينى ضد العدوان البريطانى بداية تاريخ الصين الحديث وبدء الثورة الديمقراطية البرجوازية التى خاضها الشعب الصينى ضد الامبريالية والاقطاعية .

ولقد اشار الزعيم العظيم الرئيس ماو فى مقالته « الثورة الصينية والحزب الشيوعى الصينى » التى كتبها عام ١٩٣٩ الى : " ان تاريخ تحويل الصين الى شبه مستعمرة ومستعمرة من قبل الامبريالية بالتحالف مع الاقطاعية الصينية هو ايضا تاريخ نضال الشعب الصينى ضد الامبريالية وعملائها . ان حرب الافيون ، وحركة مملكة تايبينغ السماوية ، والحرب الصينية الفرنسية ، والحرب الصينية اليابانية ، والحركة الاصلاحية عام ١٨٩٨ ، وحركة يى خه توان ، وثورة ١٩١١ ، وحركة ٤ مايو (ايار) ، وحركة ٣٠ مايو (ايار) ، والحملة الشمالية ، وحرب الثورة الزراعية وحرب المقاومة الحالية ضد اليابان تعبر جميعا عن روح المقاومة العنيدة لدى الشعب الصينى الذى يأبى الرضوخ للامبريالية وعملائها . "

لقد اثيرت حرب الافيون على نحو متعمد من قبل الغزاة البريطانيين .

وكانت الحلقة الاولى فى سلسلة الحروب العدوانية التى شنتها القوى الرأسمالية لتحويل الصين الى شبه مستعمرة ومستعمرة لها .

فقبل حرب الافيون بنصف قرن كانت حكومة تشينغ التى تحكم الشعب الصينى آنذاك فاسدة للغاية . واصبح كل من انحطاطها السياسى وعجزها العسكرى وافلاسها المالى واضحا مع مرور الايام . واخذت الثروة الاجتماعية تتركز تدريجيا فى ايدى اقلية مستغلة من الارستقراطيين والموظفين وملاك الاراضى والتجار الاغنياء ، واخذت مشكلة ضم الاراضى تزداد خطورة . وبدأت جماهير الفلاحين والحرفيين الغفيرة تعانى من الاستغلال الذى تمثل فيما يرتفع ارتفاعا مستمرا من الضرائب والجبايات وايجارات الاراضى والربا الفاحش ، الامر الذى ادى الى ازدياد حدة التناقضات الطبقية . فأضحت المنظمات الشعبية السرية اكثر نشاطا فى نضالها ضد حكم اسرة تشينغ الرجعى . وكانت انتفاضة اللوطس الابيض الفلاحية التى استمرت تسع سنوات واكتسحت عدة مقاطعات ما بين نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، انفجارا كبيرا للتناقضات الطبقية المتزايدة . ومع ان هذه الانتفاضة قد قمعت بقسوة من قبل حكام اسرة تشينغ الا انها كانت ضربة شديدة اضعفت حكم اسرة تشينغ الى حد كبير . واشتدت المقاومة الشعبية بعد ذلك فى هذا المكان بينما هدأت فى مكان آخر ، واستمرت سنين متتابعة من غير توقف . وبدأ حكم اسرة تشينغ الرجعى يتداعى .

كانت الرأسمالية فى تلك الاثناء تتطور تطورا سريعا فى اوربا

وامريكا . ففى بريطانيا ، اول دولة رأسمالية قوية فى العالم ، حلت الصناعات الآلية تدريجيا محل الصناعات اليدوية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر . ومع بداية القرن التاسع عشر اخذت الرأسمالية تتطور فيها بمزيد من السرعة . وفى عام ١٨٢٥ حدثت فى بريطانيا اول ازمة من ازمات فرط الانتاج فى تاريخ الرأسمالية العالمى.فأحس البرجوازيون البريطانيون بضرورة البحث عن اسواق جديدة اكبر من الاسواق السابقة لتصريف بضائعهم ، وذلك كى يتخلصوا من الازمة ويجنوا مزيدا من الارباح . فبعد ان احكموا سيطرتهم على مستعمرتهم الهند وجهوا رأس رمح عدوانهم الى الصين ذات الاراضى الواسعة والموارد الطبيعية الغنية والتعداد السكانى الكبير ، واخذوا يسعون الى فتح بابها بعنف ويمدون مخالبهم لسرقة واستعباد الشعب الصينى .

وكان الذى ساد فى اقتصاد المجتمع الصينى فى ذلك الوقت هو الاقتصاد الطبيعى الذى يدمج الزراعة الفردية فى الصناعة اليدوية الفردية . وكانت الاسرة هى الوحدة الاساسية فى الانتاج الفلاحى ، الرجال يحرثون الارض والنساء ينسجن القماش ، فمعظم ثياب الفلاحين وحاجاتهم اليومية الاخرى كانت تنتج فى البيت . ولم يكونوا بحاجة ملحة الى شراء البضائع الصناعية المصنعة على يد الرأسمالية الغربية ، ولم تكن لديهم النقود لشرائها . وكانوا ، من اجل دفع ايجارات الاراضى الباهظة والضرائب المتنوعة الفاحشة ، يضطرون الى بيع بعض منتجاتهم الجانبية على نحو دورى . لذلك كان من الصعب على الرأسماليين البريطانيين ان يغرقوا

السوق الصينى ببضائعهم الصناعية .

وما بين عام ١٧٨٦ وعام ١٨٢٩ اتى الرأسماليون البريطانيون الى الصين فى ثمانى مناسبات لبيع المنسوجات القطنية ،ولكن اعمال التسويق تمت على نحو غير مرض ، وخسروا عدة مرات . ففى عام ١٧٩٠ مثلا لم تحصل بريطانيا الا على الفى ليانغ * من الفضة مقابل مائة قطعة من القماش القطنى نقلت من مانتشستر ، وهذا المبلغ لا يكفى الا لتغطية كلفة انتاجها فقط . ومرة ثانية فى عام ١٨٢١ لم يصل سعر مبيع ٥٠٩ر٤ قطع من القماش القطنى الملون البريطانى و٤١٦ قطعة من المخمل والقطيف عرضت فى المزاد العلنى فى قوانغتشو الا ٤٠ ٪ من قيمة تكاليفها . واستمرت الخسارات حتى عام ١٨٢٧ ، ولكن ظلت السوق بعد ذلك محدودة امام البريطانيين .

لقد كان من الصعب على السلع الصناعية البريطانية ان تجد سوقا فى الصين ، وذلك جعل الصين تحافظ باستمرار على زيادة الصادرات عن الواردات فى تجارتها مع بريطانيا . ففى نهاية القرن الثامن عشر كانت شركة الهند الشرقية (وهى التى احتكرت بامتياز من الحكومة البريطانية التجارة مع الشرق ، وخاصة مع الهند والصين ، وواصلت تنفيذ مشاريعها الاستعمارية هناك بدءا من القرن السابع عشر حتى منتصف القرن التاسع

---

* ليانغ : وحدة وزن صينية تساوى ٣١ غراما تقريبا حسب القياس القديم ، ووحدة نقد صينية قديمة ايضا تبلغ مثل هذا الوزن من الفضة الخالصة . — المعرب

عشر) تشترى من الصين كل سنة كميات من الشاى تبلغ قيمتها ٤ ملايين ليانغ من الفضة . وهذا وحده فاق مبيع السلع الرئيسية الثلاث — المنسوجات الصوفية والمنتجات المعدنية والقطن — المصدرة الى الصين من قبل التجار البريطانيين . لقد بلغت قيمة جميع البضائع البريطانية التى استوردتها الصين من عام ١٧٨١ الى عام ١٧٩٣ واشتملت على المنسوجات الصوفية والقماش القطنى والخيوط القطنية والمنتجات المعدنية ، ١٦٫٨٧٠٫٠٠٠ دولار فضى فقط ، او سدس قيمة الشاى الذى صدرته الصين الى بريطانيا . وهكذا اضطر الرأسماليون فى اوربا وامريكا الى دفع مبالغ ضخمة من الفضة مقابل حصولهم على الشاى والحرير . وفى بداية القرن التاسع عشر اخذ يتدفق الى الصين عبر قوانغتشو نحو ١ — ٤ مليون ليانغ من الفضة كل سنة . فكانت السفن الاجنبية القادمة الى مقاطعة قوانغدونغ من اجل التجارة تضطر الى جلب دولارات فضية اكثر مما تجلب معها من البضائع .

واقلقت هذه الاحوال الرأسماليين البريطانيين الذين كانوا يبحثون برغبة جامحة عن مجال لتوسيع السوق امام منتجات صناعاتهم الآلية . واعتبروا ان قلة مبيعات بضائعهم يرجع لسياسة الباب المغلق التى سلكتها حكومة تشينغ . ذلك لأن ميناء صينيا وحيدا كان مخصصا للتجارة الخارجية قبل حرب الافيون هو ميناء قوانغتشو ، ولأن جميع اعمال الاستيراد والتصدير كانت تتم على ايدى تجار الهانغ باذن خاص من الحكومة . فحاول الغزاة البريطانيون الذين كانوا متلهفين على شق طريق

الى الصين اغراء حكومة تشينغ بألف وسيلة ووسيلة لفتح مزيد من الموانئ والسماح بالتجارة الحرة .

وفى عام ١٧٩٣ ارسلت الحكومة البريطانية اللورد مكارتنى الى بكين على رأس وفد كبير للتفاوض مع حكومة تشينغ . فطالبها بفتح الموانئ الثلاثة — تيانجين ودينغهاى ونينغبوه — باعتبارها موانئ تجارية اخرى بالاضافة الى ميناء قوانغتشو ، وطالبها بالتخلى عن جزيرة بالقرب من جزيرة تشوشان (وهى اكبر جزيرة فى مجموعة جزر تشوشان) ، كما طالبها بتخفيض التعرفة والسماح بنشر المسيحية فى الصين . ولكن حكومة تشينغ رفضت هذه المطالب ذات الطبيعة العدوانية الواضحة التى ستنتهك حرمة سيادة الصين انتهاكا خطيرا .

وفى عام ١٨١٦ ارسلت الحكومة البريطانية اللورد امهيرست الى الصين ، فطرح بدوره مرة اخرى المطالب التى طرحها مكارتنى ، والتى رفضت مرة ثانية .

وفى العشرينات والثلاثينات من القرن التاسع عشر ومع تطور الرأسمالية البريطانية على نحو اوسع اصبح البرجوازيون البريطانيون العدوانيون اكثر تلهفا على فتح باب الصين قسرا امام بضائعهم واكثر طموحا الى السوق الصينية . وقد اعتقدوا بأن السوق الصينية اذا فتحت فان البضائع البريطانية التى تباع فيه ستبز كل ما يباع فى بقية انحاء العالم . وهذا يكشف كشفا تاما اطماع البرجوازيين البريطانيين فى الصين . ولدى توضيح مزايا الرأسمالية اشار لينين الى ان : " النظام الرأسمالى لا يستطيع ان

يحتفظ ببقائه او يتطور من غير ان يوسع على نحو دائم نطاقا من الهيمنة ومن غير ان يستعمر بلادا جديدة ومن غير ان يجر بلدانا قديمة ليست رأسمالية الى دوامة اقتصاد العالم . " * لذلك يبدو واضحا ان شن حرب الافيون من البرجوازيين البريطانيين على الصين لم يحدث مصادفة .

---

* لينين : « تطور الرأسمالية فى روسيا » ، « مؤلفات لينين الكاملة » ، المجلد الثالث .

٢ — تجارة الافيون الشائنة

حاول الرأسماليون البريطانيون بكل وسيلة ممكنة تغيير توازن تجارتهم غير المتلائم مع الصين ، فوجدوا فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ان الافيون بضاعة رابحة جدا ، ولها سوق رائجة فى الصين بين ارستقراطييها وبيروقراطييها وملاك اراضيها وتجارها الاغنياء المبذرين . لذلك قرروا استخدامه " ليفسحوا لأنفسهم بواسطته موضع قدم داخل عتبة الصين " .

لقد انتج الافيون اول ما انتج فى الهند وآسيا الصغرى . وقبل عام ١٧٦٧ كان ما تستورده الصين سنويا من افيون الهند لا يتجاوز مائتى صندوق . وقد سمحت حكومة تشينغ باستيراد هذا الافيون لاستخدامه فى الطب . وفى عام ١٧٧٣ تبنت حكومة الهند البريطانية السياسة الاجرامية التى تمثلت فى تصدير الافيون الى الصين بدرجة هائلة ومنحت شركة الهند الشرقية البريطانية حق احتكار تجارة الافيون فى الهند . ولتتأكد من تنفيذ سياستها هذه منحت هذه الشركة وحدها عام ١٧٩٧ الحق فى تصنيع الافيون . وخلال عام ١٨٠٠ وصلت كميات الافيون المصدر الى الصين الفى صندوق .

وبعد ان حصلت شركة الهند الشرقية على حقها فى احتكار تصنيع

الافيون وبيعه بذلت اقصى جهدها فى زيادة انتاجه وتصديره ، فأجبرت الفلاحين الهنود على زراعة نبات الخشخاش كما بنت مصانع فى كلكتا لمعالجة كميات ضخمة من مزيج الافيون الذى لاءم اذواق المدمنين الصينيين . وبمساعدة موظفى حكومة الهند البريطانية المساهمين فى هذه الجريمة باعت الشركة هذا المخدر جهارا فى المزاد العلنى للتجار الذين هربوه بعد ذلك الى الصين .

وجلبت تجارة الافيون ارباحا هائلة لشركة الهند الشرقية وحكومة الهند البريطانية وتجار الافيون . ولنأخذ اولا شركة الهند الشرقية عام ١٨١٣ مثالا . لقد كانت كلفة صندوق من الافيون العالى الدرجة فى الهند ٢٣٧ روبية ، ولكن سعره فى المزاد العلنى بما فى ذلك الضريبة التى تأخذها حكومة الهند البريطانية وصل عشرة اضعاف هذا المبلغ ، اى ٢٤٢٨ روبية . وكانت الشركة قبل تصدير الافيون الى الصين بهذا الحجم الواسع تنفق مبالغ هائلة من الدولارات الفضية كل سنة لشراء الشاى والحرير من الصين . ولكن بعد ان حصلت على حق احتكار تصنيع الافيون وبيعه فى الهند اصبحت عائدات تصديره الى الصين وحدها فقط تكفى لشراء كميات ضخمة من شاى الصين وحريرها .

وقد استفادت حكومة الهند البريطانية الاستعمارية هى الاخرى من تجارة الافيون لأن ضريبة الافيون التى تتجاوز قيمته بمعدل ٣٠٠٪ اصبحت جزءا رئيسيا فى دخلها ، وقد جمعت هذه الضريبة عام ١٨٢٩ — ١٨٣٠ اكثر من مليون جنيه استرلينى ، اى ما يعادل عشر

دخلها السنوى الاجمالى .

كانت هذه التجارة بالنسبة لتجار الافيون مربحة الى حد خيالى . وكان تهريب الافيون قبل حرب الافيون مربحا اكثر من اية تجارة شرعية مع الصين ، ذلك لأنه لم تكن هناك ضرائب تدفع ولأن تجار الافيون الصينيين كانوا دائما ما يدفعون الحساب مقدما دفعة واحدة . وكان ربح تجارة الأفيون عاليا جدا فلقد صرح وليم جاردن ، وهو اكبر تجار الأفيون البريطانيين ، فى احدى رسائله الخاصة قائلا انه " فى السنوات الجيدة ... كانت الارباح الاجمالية تصل احيانا الى الف دولار فى كل صندوق . " * وكثير من تجار الافيون البريطانيين جمعوا ثروات ضخمة من هذه التجارة الاجرامية . وبعضهم انتخب عضوا فى البرلمان وآخرون رفعوا الى مرتبة " فارس " . اما جاردن نفسه فقد جمع ثروة طائلة وشق طريقه الى مجلس العموم عام ١٨٤١ من غير ان يتعرض لصعوبات كبيرة . وهناك مهرب افيون آخر يدعى جيمس ماثيسون عاد من الصين الى بريطانيا عام ١٨٤١ بعد ان جمع مقدارا كبيرا من المال لم يعرف احد حجمه بالضبط . والذى عرف عنه انه اشترى بعد سنة من عودته جزيرة من الساحل الغربى لاسكتلندة ،

---

* مقتبسة من ميشيل جرينبيرغ : « التجارة البريطانية وافتتاح الصين (١٨٠٠ - ١٨٤٢) » دار النشر فى جامعة كامبريج ١٩٥١ ص ١٠٥ ، حاشية ٢ .

وانه انفق لاستصلاحها ٣٢٩ الف جنيه استرليني . واخيرا رقت الملكة فيكتوريا تاجر المخدرات هذا الى مرتبة " فارس " !

وحققت تجارة الافيون كذلك ارباحا هائلة بالنسبة للحكومة البريطانية والرأسماليين البريطانيين الذين يقومون بأعمال تجارية مع الشرق . ان الضريبة المفروضة على الشاى المستورد كانت بمثابة جزء رئيسى من الدخل الاجمالى للحكومة البريطانية . ففى عام ١٧٩٣ وصلت قيمة الشاى المصدر الى بريطانيا ١٦ مليون جنيه استرليني . وفى الثلاثينات من القرن التاسع عشر تجاوزت القيمة ٣٠ مليون جنيه استرليني . وبذلك قفزت الضريبة التى تجمعها الحكومة البريطانية من الشاى من ٦٠٠ ألف جنيه استرليني عام ١٧٩٣ الى ٣ر٣ مليون جنيه استرليني عام ١٨٣٣ . فاستيراد الشاى من الصين الى بريطانيا كان يمول الى حد كبير من عائدات تهريب الافيون . وكانت الهند حينذاك هى السوق الرئيسى للتجارة التى يمارسها الرأسماليون البريطانيون مع الشرق : ففى غضون ٢١ سنة من عام ١٨١٤ الى عام ١٨٣٥ ارتفعت المنسوجات القطنية البريطانية المصدرة الى الهند من اقل من مليون ياردة كل سنة الى ٥١ مليون ياردة . وألحق هذا التدفق فى المنسوجات القطنية البريطانية المصنوعة آليا اذى كبيرا بصناعة الغزل والنسيج اليدوية الهندية . ولقد اعترف الحاكم البريطانى العام للهند فى تقريره عن عام ١٨٣٤ ــ ١٨٣٥ بأن الهياكل العظمية لعمال النسيج الهنود كانت تكسو سهول الهند بالبياض . وكانت هذه المبيعات المتزايدة للمنسوجات البريطانية

فى الهند تكشف حقيقة ان الفلاحين الهنود كانوا يشترونها بالدخل الذى يكسبونه من الافيون الذى اجبروا على زراعته .

لذا فمن الواضح ان هذه التجارة الاجرامية كانت مرتبطة ارتباطا وثيقا بمصالح الحكومة البريطانية والبرجوازيين البريطانيين عموما ، وهذا هو السبب فى انهم كانوا يصرون بألف وسيلة ووسيلة على تهريب الافيون .

وفى بداية القرن التاسع عشر ارتفعت صادرات الافيون البريطانية الى الصين ارتفاعا سريعا . وكانت الوسيلة التى يتخذها المهربون هى تفريغ حمولتهم من الافيون فى ماكاو اولا ، حيث كان هذا المخدر يباع سرا ، ومن ثم يبحرون الى هوانغبو بالقرب من قوانغتشو ليبيعوا البضائع الاخرى علنا . ولكن فيما بعد غض موظفو حكومة تشينغ الطرف عن تجارة الافيون بعد حصولهم على رشوة من المهربين ، فبدأ التجار يرسون سفنهم للاستقبال * فى ميناء هوانغبو نفسه مدة طويلة ويخزنون هذا المخدر ويبيعونه هناك جهارا .

ونظرا للارتفاع المستمر فى استيراد الافيون اصدرت حكومة تشينغ مرارا اوامر بحظره عام ١٧٩٦ و١٨٠٠ و١٨١٣ و١٨١٥ ، ولكن هذه الاوامر جميعها ذهبت هباء .

وفى عام ١٨٢١ اتخذت حكومة تشينغ اجراءات حظر مشددة ،

---

* سفينة معطلة او غير قابلة للابحار ، تظل راسية بجانب الميناء حيث تستخدم لتخزين حمولات السفن ومنها تشحن الى اماكن اخرى .

فاضطر التجار الى نقل سفن الأفيون من ميناء هوانغبو الى عرض البحر قريبا من جزيرة لينغدينغ خارج مصب نهر اللؤلؤ . ومنذ ذلك الحين استمر التهريب على نحو متزايد من غير قيود . فبدلا من سبع او ثمانى سفن استقبال ترسو مدة طويلة فى لينغدينغ كان هناك اكثر من عشرين سفينة ، كما ان عدد صناديق الافيون المخزنة هناك قد ارتفع من عدة آلاف الى عشرين او ثلاثين الفا .

والى جانب سفن الاستقبال هذه التى كانت بمثابة قاعدة لتجارة الافيون ، اقيمت شبكة تهريب فى كل مكان من المقاطعات الساحلية والمناطق الواقعة خلف السواحل ، حتى اصبحت هناك اسواق لتجارة الافيون تنتشر فى جميع مدن الصين الكبيرة منها والمتوسطة .

ولعب البرجوازيون الامريكيون كذلك دورا هاما فى هذا التهريب الاجرامى . فقد ارسلوا اول سفينة لهم الى الصين عام ١٧٨٤ ، وهكذا بدأوا تهريبهم المسلح . ونظرا الى ان شركة الهند الشرقية البريطانية قد امتلكت حق احتكار تصنيع الافيون فى الهند ، فقد اضطر تجار الافيون الامريكيون الى اجتياز نصف الطريق حول العالم لشراء الافيون من تركيا وايران من اجل بيعه فى الصين . وبناء على التحقيق الذى اجرى فى ذلك الوقت تبين ان تجار الولايات المتحدة فى قوانغتشو كانوا جميعهم تقريبا مشتركين فى تجارة الافيون .

فبيركينز وشركاه فى العشرينات من القرن التاسع عشر وروسل وشركاه فى الثلاثينات ، كلتاهما كانتا مؤسستين امريكيتين كبيرتين انهمكتا

فى عمليات تجارة الافيون الضخمة فى الصين . ولقد بنى المعتدون الامريكيون سفنا شراعية سريعة خاصة من اجل تهريب مسلح على نطاق واسع ، وهذه السفن لا يمكنها ان تبحر بسرعة تفوق سرعة السفن التجارية الاخرى فحسب بل تتزود ايضا بالمدافع وغيرها من الاسلحة المتنوعة ، وعندما تصطدم بالدوريات البحرية الصينية تفتح النار وتشق طريقها عنوة .

لقد ابتز مهربو الولايات المتحدة من الشعب الصينى ثروة هائلة من خلال تجارة الافيون . ففى عام ١٨٢٤ اعترف احد التجار بأنه لم يشحن الى الصين خلال السنوات الثلاث السابقة ما قيمته دولار فضى واحد مع انه كان ينقل منها البضائع سنويا وخاصة الحرير والاقمشة القطنية التى تعود عليه بأكثر من مليون دولار فضى .

واخذ تهريب الافيون يتفشى فى الصين اكثر فأكثر ، ذلك ان الغزاة البريطانيين والامريكيين قاموا برشو موظفى حكومة تشينغ . ولقد سجل احد البريطانيين فى مذكراته : " كان من عادة هؤلاء الموظفين ان يقبلوا رشوة من خمسة الى عشرة دولارات فى الصندوق الواحد ، يطلبون من القبطان ان يأخذها لهم من المهربين الصينيين . . . . وكانوا يزورون السفن مرة كل شهر تقريبا من اجل اخذ الرشوة على عدد من الصناديق المهربة . " *

---

* ج . اليوت بينغهام « قصة الحملة على الصين » ، هنرى كولبرن ، لندن ، ١٨٤٣ ، المجلد الاول ، ص ٦ .

وهكذا اخترق التجار البريطانيون والامريكيون الحواجز بتهريبهم ، وذلك من خلال الرشوة ، فتدفق سيل اسود سام من الافيون الى الصين . وارتفع الاستيراد السنوى من هذا المخدر الذى كان قد وصل الى ٥ آلاف صندوق عام ١٨٢١ ، فتجاوز ١٠ آلاف صندوق عام ١٨٣١ .

كانت سنة ١٨٣٤ سنة هامة فى تاريخ تجارة الافيون الشائن . فمعارضة الطبقة البرجوازية البريطانية ، تلك الطبقة الصناعية والتجارية التى نمت مع مرور الايام ، لاحتكار شركة الهند الشرقية حق التجارة مع الصين قد توصلت الى الغاء هذا الحق على يد الحكومة البريطانية فى تلك السنة ، الامر الذى فسح المجال امام البرجوازيين البريطانيين جميعا للاتجار مع الصين . ومن اجل مواجهة هذا الوضع الجديد عينت الحكومة البريطانية وليم جون نابير ، وهو ارستقراطى اسكتلندى وعضو فى مجلس اللوردات وضابط كبير فى البحرية البريطانية ، مديرا اعلى للتجارة فى الصين . وفى السابق كان رئيس اللجنة المختارة فى قوانغتشو التابعة لشركة الهند الشرقية هو الممثل التجارى الوحيد للحكومة البريطانية ، اذ لم يكن لها ممثل دبلوماسى دائم فى الصين . فكان القصد من تعيينها مديرا اعلى هو اقامة علاقات دبلوماسية مع حكومة تشينغ بهدف تحقيق طموحها العدوانى فى فتح مزيد من الموانئ من اجل تجارة الافيون ، وتوسيع التجارة البريطانية ــ الصينية والحصول على بعض القواعد البحرية .

وصل نابير الى ماكاو عام ١٨٣٤ . ولما لم يستجب لأى من مطالبه العدوانية استشاط غضبا واصدر فى ٥ ايلول امرا لسفينتين حربيتين

بريطانيتين بضرب حصون هومن بالقنابل . وهدد كذلك بأن الحرب بين بريطانيا والصين وشيكة الوقوع وان على الصين ان تتحمل كامل المسؤولية ازاء ذلك .

ولكن سرعان ما مات نابير ، فعينت الحكومة البريطانية اولا السير جورج بست روبنسون ، وهو رئيس سابق للجنة المختارة فى قوانغتشو التابعة لشركة الهند الشرقية . وفيما بعد عينت تشارلز اليوت ، وهو ضابط استعمارى اعلى سابق فى مستعمرة غويانا البريطانية فى ذلك الحين ، مديرا اعلى للتجارة البريطانية فى الصين . وهذان الاثنان كانا يسلكان كل وسيلة من اجل تسهيل عمليات تهريب الافيون المسلحة واحباط جهود الصين التى تبذل فى سبيل حظرها . ولقد نقل روبنسون مكتبه من ماكاو الى مركب مثبت عند لينغدينغ حيث تمكن بذلك من مساعدة تجار الافيون البريطانيين على نحو افضل . وفى عام ١٨٣٧ نجح تجار الافيون البريطانيون والامريكيون ، بدعم من خلفه اليوت ، فى تهريب ٣٩ الف صندوق من الافيون الى الصين بقيمة ٢٥ مليون دولار امريكى .

وجرت هذه الواردات الضخمة من الافيون كارثة مخيفة على الصين . فالارستقراطيون والموظفون وملاك الاراضى والتجار الاغنياء هم الذين كانوا يتعاطون هذا المخدر فى البداية . ولكن فيما بعد اصبح جميع اتباع الطبقة الحاكمة كخصيان البلاط ورسل السراى من مختلف المستويات وحملة المحفة والجنود والرهبان البوذيين والراهبات والكهان

الداويين وبغايا المدينة من المدمنين . ووفقا للتقدير الذى جرى عام ١٨٣٥ فان اكثر من مليونى نسمة قد اعتادوا تعاطى هذا المخدر .

لقد قلبت تجارة الافيون رأسا على عقب ذلك الرجحان فى الصادرات على الواردات والذى حافظت عليه الصين طويلا فى تجارتها الخارجية ، اذ لم يعد ما تصدره الصين من الشاى والحرير الخام والقماش والعقاقير الطبية يكفى لدفع نفقات الافيون ، وهكذا بدأ سيل ضخم من الفضة يتدفق الى الخارج . وبعد عام ١٨٢١ ، حيث ارتفعت نسبة تهريب الافيون ارتفاعا شديدا ، لم يعد نقص الفضة وقفا على المقاطعات الساحلية فحسب بل شمل اجزاء اخرى من البلاد كذلك . وقد اشارت الاحصائيات البريطانية الى ان تدفق الفضة من الصين الى بريطانيا بين عام ١٨٢٣ و١٨٣٤ قد ارتفع ارتفاعا مخيفا ، اذ وصل الى الرقم ٢٫٢٥ مليونا من الدولارات . والحد الادنى من التقديرات يشير الى ان ١٠٠ مليون دولار على الاقل ، وهذه تعادل خمس المقدار الاجمالى للفضة المتداولة فى الصين ، قد استنزفت من البلاد خلال عشرين سنة (من عام ١٨٢١ الى عام ١٨٤٠) قبل حرب الافيون . وهذا يعنى انه كانت هناك خسارة بمعدل خمسة ملايين دولار من الفضة سنويا ، اى عشر الدخل السنوى الاجمالى لحكومة تشينغ .

وادى تدفق الفضة الى نشوء وضع خطير اذ ارتفعت قيمة الفضة بالنسبة للنحاس ، والفضة والنحاس هما العملتان المتداولتان فى ذلك الحين . ففى نهاية القرن الثامن عشر اصبح الليانغ الواحد من الفضة

يستبدل بسبع مائة الى ثمانمائة ون * من العملة النحاسية . وفى ثلاثينات القرن التاسع عشر اصبح يساوى من ١٦٠٠ الى ١٧٠٠ ون من العملة النحاسية ، وهذا يبين الارتفاع المضاعف فى قيمة العملة الفضية خلال ٣٠ سنة .

وعانى الفلاحون والحرفيون معاناة مباشرة من ارتفاع سعر الفضة لأن اسعار المنتجات الزراعية والحرفية فى السوق كانت تحسب بالعملة النحاسية ، فى حين كانوا مجبرين على دفع الضرائب بالفضة ، فكان يتعين عليهم اولا ان يحولوا عملتهم النحاسية الى فضة . وفى الوقت نفسه ادى استنزاف الفضة الى ازدياد فى الازمة المالية بالنسبة لحكومة تشينغ . فجمع الضرائب اضحى اكثر صعوبة ، والمقاطعات تخلفت فى تسليم ضرائبها ، وخزانة الدولة اخذت تعانى من عجز اكثر فأكثر فى ودائعها الفضية . وفوق ذلك كله كان للادمان على الافيون بين الموظفين وداخل صفوف الجيش تأثير سيئ على جميع الاجهزة الحاكمة ، بل وزاد التهريب والرشوة من فسادها . ولذلك اصبحت مشكلة الافيون مبعث اهتمام وقلق شديدين لدى الطبقة الحاكمة .

---

* ون : عملة نقدية صينية قديمة . — المعرب

٣ ـ مناظرة حظر الافيون

ابدى الشعب الصينى منذ وقت طويل استياءه الشديد من انتشار الافيون وطالب بحظره مطالبة حازمة . وقد انقسم موظفو حكومة تشينغ منذ ثلاثينات القرن التاسع عشر الى فريقين بصدد هذه المسألة : الاول يؤيد الحظر القاطع والثانى يؤيد اباحته . فجماعة الفريق الاول التى لم تكن راضية عن الطريقة السطحية اللامبالية فى معالجة هذه المشكلة طالبت بأن يعامل كل من تجار الافيون ومدمنيه معاملة عنيفة قاسية . اما مؤيدو اباحته فقد اعتقدوا بأن الاجراءات القانونية على الرغم من تشددها لم تستطع حظر تعاطى هذا المخدر ، لذلك سيكون من الحكمة فى مواجهة تدفق الفضة المستمر الى الخارج ، ان تفرض ضريبة على الافيون لحل مشكلات الخزانة .

وفى حزيران ١٨٣٦ اقترح شيوى ناى جى ، وهو وزير مسؤول عن دار العبادة القربانية ، فى مذكرة قدمها الى الامبراطور داو قوانغ قطب الطبقة الحاكمة لاسرة تشينغ ، وجوب الغاء حظر الافيون ، اى انه فيما يتعلق بتجارة الافيون يجب الغاء جميع قوانين الحظر وان حرية استيراده عن طريق التجار الاجانب يجب السماح بها مرة ثانية رسميا

شريطة ان تفرض عليه الرسوم باعتباره مستحضرا طبيا . ومن اجل وقف تدفق الفضة يجب السماح فقط بشرائه عن طريق المقايضة ، اما الاتجار بالافيون مقابل الفضة فيجب ان يمنع . وفيما يتعلق بتعاطيه فقد رأى صاحب المذكرة إن القيود يجب ان توضع على موظفى الحكومة والجنود بينما الناس العاديون يمكنهم ان يتصرفوا كما يحلو لهم . واستنادا الى تعليله القائل انه على الرغم من ان تدخين الافيون يقصر اعمار الناس الا ان عدد سكان الصين فى تزايد ، لم تعد هناك حاجة للقلق حول بدء انخفاض عدد السكان . ونصح كذلك باتخاذ سياسة متساهلة بشأن زراعة الافيون تسمح لكل شخص بزراعته اذا كان يرغب فى ذلك ، معتقدا انه عندما يفعل ذلك عدد كاف من الناس يصبح استيراد هذا المخدر غير مربح ويتخلى الاجانب عن هذه التجارة من تلقاء انفسهم .

ومن الواضح ان اقتراح شيوى ناى جى ، والذى كان الهدف منه اباحة هذه التجارة اللعينة وتشجيع انتشار هذا المخدر ودفع الشغيلة الى زراعته والتحول الى مدخنين ، سيجلب الى البلاد مزيدا من الاذى . ولا عجب فى ان ينال اقتراحه هذا استحسان اليوت الحامى الاعلى لمهربى الافيون البريطانيين ، والذى سرعان ما ارسل تقريرا بهذه الاخبار الجيدة الى رؤسائه ، وراح ينتظر بفارغ الصبر اعلان الغاء الحظر .

ولكن جماهير الشعب كانت حازمة فى معارضتها لهذه الفكرة السخيفة فكرة الغاء حظر الافيون . حتى ان بعض موظفى حكومة

تشينغ قدم مذكرات الى الامبراطور داو قوانغ يستنكر فيها اقتراح شيوى ناى جى ويؤيد الحظر القاطع . وفى عام ١٨٣٨ كتب هوانغ جيويه تسى ، وهو وزير مسؤول عن دار مراسم البلاط ، الى الامبراطور يقول بأن حظر الافيون لم يكن مجديا فى السابق بسبب تخريب موظفى الحكومة بمستوياتهم المختلفة الذين حققوا فوائد من تجارة الافيون . واشار بعنف ، انطلاقا من وضع الازمة المالية التى واجهتها حكومة تشينغ ، الى ان الوضع اذا بقى على هذه الحال فان سعر الفضة سيستمر فى الارتفاع وان ودائع الدولة من الفضة ستستمر فى التناقص وان مصادر الدخل الاجمالى ستنضب ولن تبقى هناك مدخرات مالية تغطى النفقات . وقال ان هذا كله سيؤدى الى عواقب لا يمكن تصورها . واراد ان يعامل مدخنو الافيون بقسوة ، فاقترح ان يطلب منهم التخلص من هذه العادة فى غضون سنة ، وان لم يمتنعوا عن الافيون بعد هذه الفترة فتنزل بالمخالفين من الناس العاديين عقوبات شديدة وبموظفى الحكومة عقوبات اشد . وحجته فى ذلك انه اذا توقف جميع المدخنين عن تعاطى هذا المخدر فسيختفى من غير منع .

ودارت حول حظر الافيون مناظرة حامية بين حكام اسرة تشينغ ، وارسل الامبراطور داو قوانغ اقتراح هوانغ جيويه تسى الى جميع نوابه وحكامه على المقاطعات ليبدوا آراءهم فى ذلك . فكانت النتيجة ثمانية اصوات مع الاقتراح وعشرين صوتا ضده ، وكان لين تسه شيوى (١٧٨٥ — ١٨٥٠) نائب الامبراطور على مقاطعتى هوبى وهونان

من بين الاقلية وتشيشان نائب الامبراطور على مقاطعة تشيلى من بين الاكثرية . وهذا دل على مدى ضعف مؤيدى الحظر لدى الفئة العليا من الطبقة الحاكمة .

لقد حدثت هذه المناظرة بين الصفوف العليا لطبقة اسرة تشينغ الحاكمة فى وقت اصبحت فيه واردات الافيون الضخمة تشكل خطرا محققا على سلطتهم . لذلك كان الطرفان مدفوعين بالرغبة فى ترسيخ هذا الحكم الاقطاعى . وفعلا عندما اصبحت واردات الافيون تشكل خطرا على بقاء الامة الصينية لم يعد هناك شك على الاطلاق فى ان سياسة الحظر القاطع هى التى كانت السياسة الصحيحة .

ادرك الامبراطور داو قوانغ خلال المناظرة مدى الخطر الذى يشكله الافيون على حكمه ، لذلك مال الى سياسة الحظر القاطع . وقد تأثر خاصة برأى لين تسه شيوى القائل : " ان الافيون مؤذ للغاية ويجب ان يباد بلا هوادة . واذا ما تركت الامور تجرى على هذا النحو فاننى اخشى ان لا يظل لدى الصين خلال عقود قليلة جنود قادرون على مقاومة اعدائها وفضة تكفى لتمويل قواتها المسلحة . " لقد بين تحذير لين للامبراطور خطورة الوضع ، فعزل شيوى ناى جى واستدعى لين تسه شيوى الى بكين لمناقشة الاجراءات التى يمكن اتخاذها لحظر الافيون .

وعندما اثيرت مسألة حظر الافيون اتخذ لين تسه شيوى ، من خلال نفوذه باعتباره نائبا للامبراطور على مقاطعتى هوبى وهونان ، اجراءات فعالة فى المنطقة التى حكمها ، وحقق نجاحا رائعا . ووصل

الى بكين فى كانون الاول ١٨٣٨ واجرى عدة مقابلات مع الامبراطور داو قوانغ قبل ان يعين اخيرا مندوبا امبراطوريا وقائدا للقوات البحرية فى قوانغدونغ ويرسل للقضاء على الافيون فى قوانغتشو .

ولم تكن تلك المهمة يسيرة على الاطلاق بعد ان اصبح مضطرا لمقاومة كل من المحاولة البريطانية لتقويض مسعاه والقوة الفاسدة للمدمنين والتجار وآخذى الرشوة بين الصينيين انفسهم . كانت هذه الجماعة الرجعية يمثلها موتشانغآ ، وهو نبيل مانشووى عمل مستشارا اعظم وتمتع بثقة الامبراطور التامة ، وتشيشان نائب الامبراطور على مقاطعة تشيلى . وقد عارض كلاهما القضاء التام على هذا المخدر كما عارضا اباحته ، ذلك لأنهما لم يعتمدا على تجارة الافيون فقط بل على التهريب نفسه الذى لن يظل مصدر رشوة بالنسبة لهما اذا ما ابيحت تجارته . لقد كانا فى الحقيقة عميلين لتجار الافيون الاجانب . فعندما اصبحت قوة مؤيدى الحظر هى المسيطرة انهمكا فى تخريب خفى ، ولكن عندما بدأ المعتدون البريطانيون الحرب ظهر هذان العميلان وهاجما ، من غير ادنى اعتبار للمصالح الوطنية ، مؤيدى الحظر الذين يمثلهم لين تسه شيوى . واستسلما بذلك للمعتدين البريطانيين .

وقبل ذهاب لين تسه شيوى الى قوانغتشو بمدة طويلة كان يدور فى قوانغدونغ نضال شعبى واسع الانتشار ضد تجارة الافيون البريطانية والامريكية . فقد غير دنغ تينغ تشن نائب الامبراطور على مقاطعتى قوانغدونغ وقوانغشي ، وكان سابقا من مؤيدى اباحة الافيون ، رأيه

تحت ضغط شعبي كبير وايد فيما بعد الحظر القاطع . وبتأثير الاجراءات التي اتخذها ضد هذا المخدر سلم عشرات الآلاف من المدخنين غلايينهم وعبروا عن تصميمهم على الاقلاع عن هذه العادة . وفر ذعرا عدد كبير من الاوغاد والرعاع المحليين الذين عاشوا على عائدات تهريب الافيون . وخاف كثير من تجار الافيون البريطانيين والامريكيين من ان تجلب هذه الحركة النامية المضادة للافيون ضررا اكثر على مصالحهم. وقد اظهرت حادثة قوانغتشو في ١٢ كانون الاول ١٨٣٨ هذا القلق . ففي ذلك اليوم ذهب موظفو حكومة تشينغ بتاجر افيون صيني الى الساحة الواقعة امام المراكز التجارية الاجنبية ليعدموه شنقا . فقام تجار الافيون البريطانيون والامريكيون بكل وقاحة وكسروا الصليب وشتتوا الموظفين والجلادين . وانتهاك خطير كهذا لسيادة الصين اثار بالطبع سخطا شعبيا عظيما وسرعان ما حاصر المتظاهرون المراكز التجارية الاجنبية .

ولقد قدم تاجر افيون امريكي هذا الوصف وكان شاهد عيان : " ظل حصار المراكز من قبل الغوغاء — وهي اشارة سيئة للشعب الصيني — مستمرا طيلة فترة ما بعد الظهر ، واضطر الحراس الواقفون عند زاوية المركز التجاري الامريكي الى التقهقر . . . وبدت الامور خطيرة جدا . " لقد تجمع هناك " من غير شك ثمانية او عشرة آلاف " من المتظاهرين ، " وفيما يبدو انهم مصممون على ابادة ' الشياطين

الاجانب' وحوالى الساعة الخامسة اقترح شخص ما انه قد يستحق ان ترسل مذكرة بوضعنا الى تاجر الهانغ وو دون يوان . . . . السيد ج . ناى . . . وانا نفسى نتعهد بأن نذهب ونراه . . . وتهيأنا للعبور الى سطح دكان فى ممر الهانغ ونزلنا فيه ، وبعد شىء من الجهد وصلنا شارعا عند مؤخر المراكز يدعى 'شارع الثلاثة عشر مركزا' وقد افضى بنا هذا الشارع الى مؤسسة وو دون يوان التجارية . وهناك وجدنا السيد العجوز . . . . فبعث على الفور رسولا الى 'قوانغ تشو فو' الحاكم الاعلى للمدينة . . . . . وحوالى الساعة السادسة والنصف شعرنا بارتياح كبير بعد ان سمعنا صوت صنج يشير الى قدوم الضباط ، وشاهدنا من شرفتنا التشتت السريع من الغوغاء بفعل السياط ، لم يستثن احد ، كما ان ظهور العديد من الجنود الذين يتبعون الموظفين قد ادى الى اندفاع نحو كل مخرج من الساحة ، حتى الى النهر حيث غرق الكثيرون . . . . وفتحت ابواب المركز على مصاريعها ، وفى لحظة واحدة ظهر 'السجناء' (تجار الافيون الاجانب) وعلى وجوههم ملامح ارتياح يتعذر وصفه . وقضى الموظفون ليلتهم على الأرض ، فقد جلبت لهم الكراسى ، واضيئت المصابيح الرسمية . . . . وفى اليوم التالى استعاد كل شىء حالته الطبيعية من الراحة والأمن . واخذ 'الضحية' من الساحة الى ميدان الاعدام العام ليشنق هناك . وفى الصباح قدمنا شكرنا الى الموظفين على مساعدتهم الفورية . . . فاستقبلونا

بلطف كبير واكدوا لنا انه « لم يعد هناك ما يستدعى الخوف ! » *

يبين هذا الوصف اولا كيف كانت القوة العاصفة للنضال الشعبى العفوى ترهب المعتدين الاجانب . ويفضح كذلك تصرف تجار الهانغ الشائن ، اسلاف طبقة الكومبرادوريين التى خدمت مصالح الغزاة بكل اخلاص . ويبين اخيرا كيف ان حكام اسرة تشينغ الاقطاعيين كانوا يضطهدون الشعب ويحمون المعتدين بدلا من القتال ضد العدو لرفع الازلال الذى لحق بهم ! وهذا كله يدل على ان الشعب الصينى والطبقة الحاكمة الرجعية الاقطاعية قد اتخذا موقفين مختلفين كليا ازاء العدوان . فقد تشبث الاول بخط المقاومة الحازمة ، بينما تمسكت الثانية بخط الاستسلام .

وعزز لين تسه شيوى رأيه حول وجوب حظر الافيون ، وذلك عندما وجد لدى وصوله الى قوانغتشو فى آذار ١٨٣٩ ان هناك ضغطا شعبيا قويا للعمل ضد المعتدين الاجانب . فأمر بتعزيز قوة الحماية الساحلية والقبض على تجار الافيون . وفى ١٨ آذار امر التجار الاجانب ان يعدوا قائمة جرد بما لديهم من افيون مخزن فى سفن الاستقبال خلال ثلاثة ايام وينتظروا اتلافه . وطلب منهم كذلك ان يوقعوا على تعهد بعدم جلب

---

* و . س . هنتر « " الفان قوى " (الشيطان الاجنبى) فى قوانغتشو قبل ايام المعاهدة ، ١٨٢٥ — ١٨٤٤ » ، كيلى ووولش المحدودة ، شانغهاى . ١٩١١ ص ٧٥ — ٧٧ .

الافيون الى إلصين مرة ثانية . وقد اعلن لين فى مرسومه بكل حزم : " لن اترك قوانغتشو حتى يتوقف تدفق الافيون . ولقد تعهدت بأن ارى هذه المشكلة تعالج على نحو مرض ، ولا شيء يعترضنى بهذا الخصوص . "

وانزلت هذه الاجراءات ضربة شديدة بالمهربين الاجانب ، فعزم تشارلز اليوت ، مدير التجارة البريطانية الاعلى لدى الصين وممثل الحكومة البريطانية ، على تقويضها : لذلك اصدر اوامره الى سفن استقبال الافيون عند مصب نهر اللؤلؤ بالفرار والتهيؤ للمعركة ؛ واحتج على تقوية قواعد الدفاع فى قوانغتشو ، واخذ يجبر التجار البريطانيين على مغادرة قوانغتشو .

ولمقاومة تخريب اليوت اتبع لين تسه شيوى الاجراء العرفى المتعلق بـ" اغلاق العنابر حيث تنتهك حرمة القوانين". وامر بوقف التجارة كلها ، وارسل جنودا لمراقبة المراكز التجارية الاجنبية ، وامر بحجرها مع انسحاب المستخدمين الصينيين منها وقطع الاتصالات بين سفن الاستقبال والمراكز التجارية الاجنبية . ولما رأى اليوت انه لا جدوى من المقاومة الصريحة غير تكتيكه وامر التجار البريطانيين بتسليم ما لديهم من الافيون واعدا اياهم بأن الحكومة البريطانية ستعوضهم عن ذلك . ولكى يشد تجار الافيون الامريكيين الى جانبه اقنعهم بأن يتصرفوا كما تصرف التجار البريطانيون وبالشرط نفسه . وكانت نيته السيئة هى ان يجعل من معالجة لين لتجارة الافيون غير الشرعية مسألة دولية بين الصين وبريطانيا ، بحيث يمكن للحكومة البريطانية ان تتخذها ذريعة لشن الحرب .

ومن اواخر نيسان الى منتصف ايار من تلك السنة سلم التجار

البريطانيون والامريكيون ٢٨٣ر٢٠ صندوقا من الافيون الى جانب ما يقارب الفى كيس كذلك ، ومجملها يزيد عن مليونى جين . وقد اتلفت جميع هذه الكميات جهارا ما بين الثالث من حزيران والخامس والعشرين منه على شاطئ فى هومن ، وكان بين المتفرجين اجانب . وعندما اعلن لين تسه شيوى اتلاف الافيون قال بعض الحقودين الاجانب فى سخرية ، ومن بينهم عدد من المبشرين ، ان الصينيين لن يتلفوا ولو ليانغا واحدا من الافيون ، حتى ولو جرت هناك محاولة لاتلافه فان معظم المادة سيسرق . ولكن اولئك الذين رأوا المشهد اعترفوا بأنهم كانوا مخطئين . فقد كتب المبشر ا . س . بريجمن يقول : " ان درجة العناية والدقة اللتين ادير بهما العمل كله قد تجاوزت الى حد بعيد ما توقعناه . . . . "*

كان اتلاف الافيون فى هومن انتصارا لسياسة الصين فى حظر الافيون ، كما انه اظهر للعالم كله تصميم الشعب الصينى على اخماد الاتجار بهذا المخدر السام وعلى معارضة العدوان الاجنبى .

ولكن تجارة الافيون كانت مصدر ثروة بالنسبة للبرجوازية البريطانية وبالنسبة لدخل حكومتها الاجمالى ، فطبيعى الا تسلم بالهزيمة . لذلك بينما كان التجار البريطانيون يسلمون ما لديهم من الافيون ، كان اليوت يواصل استعداداته لحرب عدوانية . وفى ٣ نيسان ١٨٣٩ اقترح فى تقرير قدمه الى وزير الخارجية البريطانية اللورد بالميرستون ان افضل طريقة

* « المخزن الصينى » ، المجلد ٨ ، ص ٧٤ .

امام البريطانيين لتدبر شأن الصين هى الا يكشفوا مسبقا اى شىء من نواياهم ، ومن ثم يضربونها ضربة مفاجئة . ولقد حث الحكومة البريطانية مرارا وتكرارا فى تقاريره الكثيرة اللاحقة على بدء الحرب .

ظل لين تسه شيوى بعد اتلاف الافيون مصرا على سياسة الحظر ، فقد طالب قبطان كل سفينة تجارية اجنبية تدخل ميناء قوانغتشو بتوقيع تعهد بألا تحمل سفينته افيونا الى الصين وان يرضى ، فى حالة خرق هذا التعهد ، بمصادرة الحمولة وبعقوبة الاعدام التى ستنزل بالاشخاص المشاركين فى ذلك . وتابع فى الوقت نفسه استعداداته العسكرية . واشرف هو والقائد البحرى قوان تيان بى على تدريب قوات قوانغدونغ المائية وقويا الحصون فى هومن وذلك باصلاح مواقع المدفعية واضافة مواقع جديدة . وقد زيدت المدافع هناك فأصبح عددها ٣٠٠ . ووضع صفان من الاعمدة الخشبية التى تربط فيما بينها السلاسل فى اضيق نقطة من مصب نهر اللؤلؤ لتسد الممر على السفن الحربية البريطانية . ونصبت بطاريتان فى منطقة جيانشاتسوى زودتا بستة وخمسين مدفعا ، وركز الحراس عند كل ممر مائى وبرى .

ودعا لين تسه شيوى الناس كذلك الى تنظيم قواتهم وجند ٥ آلاف رجل من المقيمين فى القوارب وصيادى الاسماك ليكونوا قوة بحرية اضافية عرفت باسم "شجعان الماء" . وقد دربوا على القيام بالاستطلاع والهجومات المفاجئة على مراكب العدو بحيث يساعدون فى المعركة الجنود المنظمين عند الضرورة . وكان كل شخص منهم يتلقى ستة

دولارات فضية شهريا وستة اخرى علاوة للاسرة .

لقد ميز هذا التصميم فى وجه الغزو المسلح لين تسه شيوى عن غيره من الاستسلاميين فى طبقة ملاك الاراضى . ولكنه كان بالطبع عضوا فى الطبقة الحاكمة الاقطاعية ، وعلى الرغم من اشتراكه مع الشعب فى مسألة معارضة العدوان ، الا ان التناقضات الطبقية كانت لا تزال موجودة بينه وبين الشعب . لذلك ظلت له تخوفاته حول تجنيد المقيمين فى القوارب وصيادى الاسماك ، ذلك التجنيد الذى قال فيه انه يجب ان يتم بأكبر حذر ممكن وان يكون مجرد وسيلة مؤقتة . واشترط وجوب تحرى اسر هؤلاء الرجال تحريا دقيقا وان يكون هناك كفيل لكل مجند منهم . واذا وجد بينهم من هو غير جدير بالثقة كان يصرف فورا ويرسل الى البيت ويوضع تحت المراقبة بحيث يمنع من فعل اى سوء فى المستقبل . وهذا يبين ان لين تسه شيوى لم يستطع حقا ، بوصفه عضوا فى طبقة ملاك الاراضى ، تعبئة الشعب ضد العدوان .

امر اليوت التجار البريطانيين ، فى اثناء حثه حكومته على شن الحرب ، ان يرفضوا توقيع التعهد القاضى بعدم نقل الافيون وان يواصلوا تهريبهم المسلح على درجة كبيرة . وذلك ردا على تأكيد لين تسه شيوى الحازم على حظر الافيون وردا على استعداداته الدفاعية كذلك . كما قام بشن صدامات مسلحة متكررة .

وقد وقعت حادثة فى تموز ١٨٣٩ بجيانشاتسوى فى جيولونغ ، اذ قامت مجموعة من البحارة البريطانيين بضرب بعض القرويين ، وقد

اوذى احدهم واسمه لين وى شى ايذاءا شديدا سبب له الموت . فطلب لين تسه شيوى عدة مرات من اليوت تسليم المجرم الى الحكومة الصينية . ولكن اليوت لم يكتف بعدم الاستجابة الى هذا الطلب ، بل ذهب ابعد من ذلك عندما قام نفسه بمحاكمة على الارض الصينية ، منتهكا على نحو متعمد حرمة سيادة الصين . فرد عليه لين تسه شيوى فى آب بقطع امدادات المؤن عن البريطانيين ، فلجأ اليوت الى القيام باستفزاز مسلح ، اذ امر بعض السفن البريطانية فى الساعة الثانية من بعد ظهر اليوم الخامس من ايلول بفتح النار على ثلاث قوارب دورية تابعة لسلاح البحرية الصينى بالقرب من جيولونغ . فدافع البحارة الصينيون بكل شجاعة كما فتحت البطاريات الموجودة على اليابسة النار . كانت النيران الصينية فى هذه المعركة — وفقا لما جاء به بحار بريطانى شاب — " ثابتة ومحكمة التوجيه " ، وكتب انه يأمل الا يشترك فى معركة كهذه ثانية .

اعتمد اليوت ، فى رفضه القاطع بالسماح للسفن التجارية البريطانية توقيع التعهد ، اعتمادا كبيرا على المعتدين الامريكيين . فكانت السفن الامريكية تنقل البضائع للبريطانيين ، حتى ان مراكب التجارة البريطانية كانت تدخل ميناء هوانغبو تحت العلم الامريكى . وخطاب الشكر هذا الموجه من اليوت الى تاجر الافيون الامريكى روبرت فوربز الذى كان مديرا لشركة رسل وشركاه يكشف ان الولايات المتحدة قد عملت شريكة للمعتدين البريطانيين منذ اللحظة الاولى للحرب :

" عزيزى فوربز ، ان الملكة تكن لك شكرا عظيما . . . . لقد

دخلنا بجميع بضائعنا ، وانتزعنا امدادا تاما من الشاى والحرير . اذا لم تبق البيوت التجارية الامريكية فى موقعها السابق فى قوانغتشو فسيدخلها التجار البريطانيون وليست لدى القوة لمنعهم من ذلك . " *

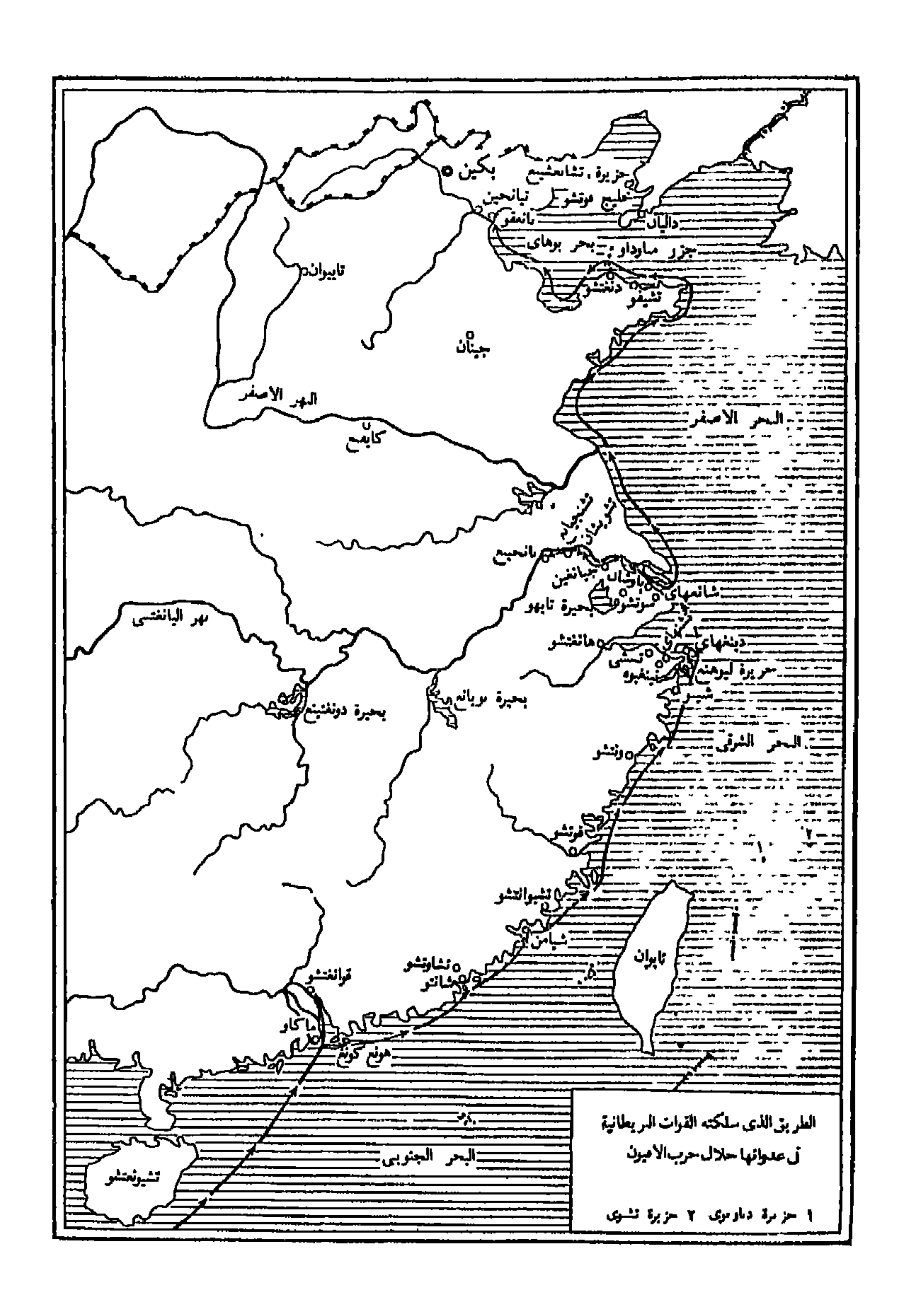
ولكن اليوت لم ينجح تماما فى محاولته منع التجار البريطانيين من توقيع التعهد . فقد وقع فى تشرين الاول ١٨٣٩ قبطان السفينة التجارية توماس كوتس ودخل الميناء متحديا حظر اليوت . وتبعه بعد ذلك مباشرة قبطان السفينة رويال ساكسون وتقدم للتوقيع كذلك .

واغاظ هذا التصرف اليوت ، فبعث فى ٣ تشرين الثانى سفينتين حربيتين لتسدا الطريق على رويال ساكسون التى كانت تقترب من الميناء ، وقد بادرت هاتان السفينتان الى فتح النار على مراكب تابعة لسلاح البحرية الصينى مثيرتان بذلك معركة تشوانبى العنيفة . فقاتلت القوات الصينية تحت امرة القائد البحرى قوان تيان بى بكل شجاعة فى هذا الاشتباك البحرى الذى استمر ساعتين . وانسحبت السفينتان البريطانيتان اخيرا الى عرض البحر وقد كبدت احداهما اضرارا .

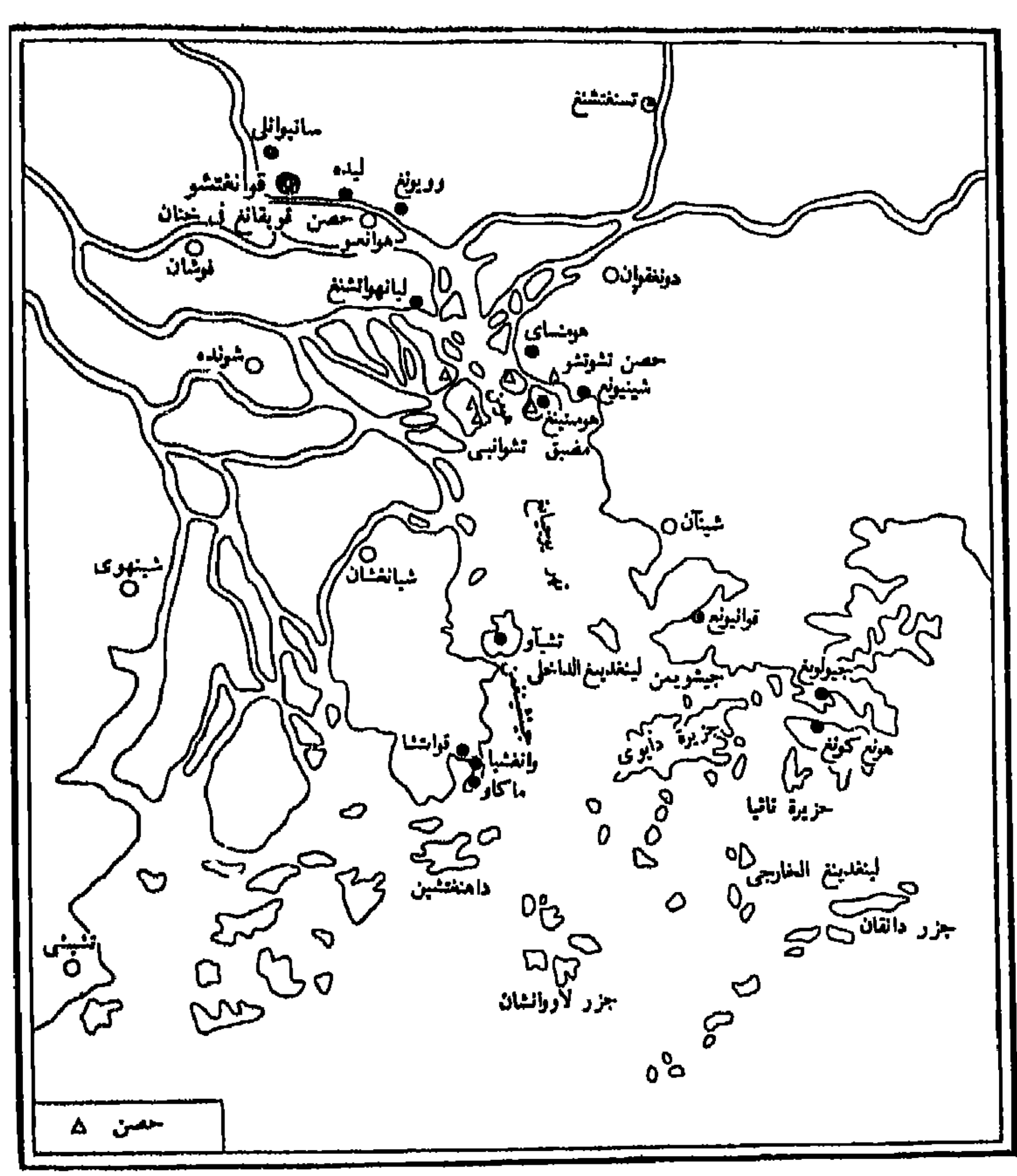
ولم يتب اليوت بعد هذا الاخفاق الذى منى به فى تشوانبى ، اذ اثار فى الايام العشرة من ٤ الى ١٣ تشرين الثانى ست حوادث اخرى بجوار قوانيونغ على مصب نهر اللؤلؤ ، وقد صد فى كل منها . وكانت هذه المعارك تمهيدا للحرب بين الصين وبريطانيا . وقد اعلن لين تسه شيوى

---

* روبرت ب . فوربز : « مذكرات شخصية » ، بوستون ، ١٨٩٢ .



الطريق الذى سلكته القوات البريطانية في عدوانها خلال حرب الافيون



وضع مدينة قوانغتشو والمناطق المحيطة بها خلال حرب الأفيون

فى كانون الثانى ١٨٤٠ ، بناء على مرسوم من الامبراطور داو قوانغ ، الاغلاق الرسمى لميناء قوانغتشو وتوقف التجارة الصينية البريطانية .

٤ ــ المعتدون البريطانيون يشنون الحرب على الصين

كانت التجارة والافيون والمدفع هى الاسلحة الثلاثة التى استخدمها المعتدون البريطانيون لافتتاح الصين . فقد بدأ مهربو الافيون البريطانيون يعدون قبل عقد من حرب الافيون الرأى العام ويجمعون المعلومات من اجل الحرب . فقام جيمس ماثيسون عام ١٨٢٣ ، وهو مهرب افيون قيادى ، بحملة استطلاعية قطع فيها مسافة طويلة تبلغ اكثر من خمسمائة كيلومتر على طول الساحل الصينى . وبدأ هو نفسه بنشر صحيفة فى ماكاو عام ١٨٢٧ سماها « سجل قوانغتشو » ، تلك الصحيفة التى كانت تؤيد العدوان بكل صراحة . كما ارسل فرع شركة الهند الشرقية فى قوانغتشو عام ١٨٣٢ ، التى هى مقر القيادة الرئيسى لعمليات العدوان البريطانى فى الشرق ، سفينته التجسسية التى تدعى " اللورد امهيرست " لتجوب الساحل الصينى فى رحلة دامت ستة اشهر . وكان على متن هذه السفينة الجاسوسان : هـ . هـ . لندسى ، المعروف باسم هو ــ هى ــ مى ، وتشارلز قوتزلاف اللذان جمعا على نحو منظم معلومات سياسية واقتصادية وعسكرية بشأن شيامن وفوتشو ونينغبوه وشانغهاى ، تلك الموانئ الهامة على الساحل الجنوبى الشرقى . ووفقا لهذه

المعلومات الى جانب النتائج التى امكن الوصول اليها استطلاعيا فى السنوات السابقة رسم تجار الافيون البريطانيون خطة تفصيلية للحرب العدوانية حددوا فيها حتى عدد الرجال واشكال القوارب التى يجب استخدامها . وقد قدمت هذه الخطة لوزير الخارجية البريطانية اللورد بالميرستون فى رسالة شخصية من لندسى مؤرخة فى ٢٤ تموز ١٨٣٥ .

واسست فى لندن عام ١٨٣٦ " جمعية الهند الشرقية والصين " بعضوية ١٠٩ شركات كبيرة لها مصالح فى الهند والصين فى مجال تجارة الاستيراد والتصدير والشحن بالسفن والتمويل . وقد ظل هذا الجهاز على ارتباط وثيق بالحكومة البريطانية وخاصة بوزارة الخارجية ، يزوده بسيل لا ينقطع من التقارير الاستخبارية الشفهية والكتابية ويبذل غاية جهده فى حث الحكومة البريطانية على تشديد عدوانها على الصين .

وصلت اخبار حظر تجارة الافيون فى الصين الى لندن فى ٥ آب ١٨٣٩ ، فأثارت ردة فعل سريعة لدى كتلة البرجوازيين البريطانيين المعتدية على الصين التى عقدت اجتماعا طارئا فى ٧ آب لمناقشة كيفية اثارة حرب ضد الصين . وترأس هذا الاجتماع جون ماك فيكار ، وهو رأسمالى ومدير للهيئة التجارية فى مانتشستر ومهرب افيون منذ كان "وكيلا موثوقا " لدى جارداين ماثيسون وشركاه ، تلك الشركة التى تخصصت فى تهريب الافيون . وكان كل واحد حضر الاجتماع ينتسب الى الطبقة البرجوازية الكبيرة وله مصالحه فى الاعتداء على الصين . وكان من بين المجتمعين ج . ج. دى هـ . لاربنت ، رئيس " جمعية الهند الشرقية

والصين" وعضو فى نادى الافيون ، وجون آبل سميث ، وكيل فى انكلترا لمهرب الافيون الكبير وليم جارداين . وقد استقبل بالميرستون بعد انتهاء الاجتماع كافة المشتركين وخططوا سويا للحرب .

وتبعا لذلك اخذت البرجوازية البريطانية تشن حملة كبيرة لكسب دعم وتأييد الحرب الوشيكة الوقوع . فالهيئات التجارية فى لندن ومانتشستر وليفربول وليدز وكلاسكو وبرستول قد اجمعت على تأييد القيام بنشاط حازم فعال ضد الصين واثارت ضجة كبيرة مطالبة بالحرب . ثم ما لبث بالميرستون ان اعلن مهددا ، فى ٢١ ايلول فور استلامه تقريرا رسميا من تشارلز اليوت حول حظر الصين للافيون ، ان الطريقة الوحيدة للتعامل مع الصين هى توجيه ضربة شديدة اليها اول الامر ثم تقديم توضيحات بعد ذلك .

وتقررت الحرب فى اجتماع لمجلس الوزراء البريطانى انعقد فى ١ تشرين الاول . واصبح الاميرال جورج اليوت فى شباط ١٨٤٠ مبعوثا سياسيا مطلق الصلاحية كما اصبح تشارلز اليوت نائبه ، بحيث تمكنا من ابتزاز حكومة تشينغ بوسائل عسكرية ودبلوماسية . هذا وقد حشدت الحكومة البريطانية فى نيسان ١٨٤٠ ، بعد فترة من الاستعداد ، قوة عدوانية ضمت ١٦ سفينة حربية مجهزة بـ ٥٤٠ مدفعا و٢٠ سفينة نقل و٤ سفن بخارية مسلحة و٤ آلاف مقاتل . وكانت هذه القوة بقيادة الاميرال جورج اليوت .

كانت الارشادات التى وجهتها الحكومة البريطانية الى الاسطول

البريطانى ان يضرب حصارا على مصب نهر اللؤلؤ ويحتل مجموعة جزر تشوشان ويواصل التقدم شمالا الى تيانجين لاجبار حكومة تشينغ على فتح موانئ تجارية وقبول تفاوض لتحديد التعرفة ودفع تعويض عن الافيون المصادر والتخلى عن بعض الجزر . وخطة العمليات هذه قد اعتمدت كليا على التقارير الاستخبارية والاقتراحات المقدمة من تاجرى الافيون لندسى وجارداين . وكتب بالميرستون فى رسالة خاصة عام ١٨٤٢ :
" بفضل المساعدات والمعلومات التى تكرم بها علينا السيد جارداين يمكننا ان نقدم لشؤوننا البحرية والبرية والدبلوماسية فى الصين تلك الارشادات المفصلة التى ادت بنا الى هذه النتائج المرضية . . . " * وعلى رأس هذه " النتائج المرضية " التى اشار اليها تأتى « معاهدة نانجينغ » ، وهى اولى المعاهدات غير المتكافئة بين الصين وبريطانيا . وهكذا اعلن بالميرستون بكل صراحة ان الحكومة البريطانية قد اتبعت آراء مهربى الافيون فى الخطة التى وضعها من اجل العدوان . وهذا نفسه يدل على الطبيعة القذرة للحرب . . . .

وفى بداية حزيران ١٨٤٠ وصلت القوات البحرية البريطانية بالتتالى الى عرض البحر القريب من ساحل قوانغدونغ مستعدة للقيام بمحاولة للغزو . وكان لين تسه شيوى فى ذلك الوقت قد عين نائبا للامبراطور

* مقتبسة من ميشيل كرينبيرغ ، « التجارة البريطانية وافتتاح الصين ١٨٠٠ — ١٨٤٢ » ، دار النشر فى جامعة كامبريدج ١٩٥١ ص ٢١٤ .

على قوانغدونغ وقوانغشى ، وكان ساحل قوانغدونغ محميا تحت قيادته حماية جيدة ، لذلك احبطت تلك المحاولة البريطانية . فترك الاسطول البريطانى قوانغتشو وابحر شمالا فى ٣٠ حزيران لغزو شيامن ، الا انه صد من قبل القوات الصينية بقيادة دنغ تينغ تشن نائب الامبراطور على فوجيان وتشجيانغ فى ذلك الوقت .

ووصل الاسطول الغازى فى ٢ تموز الى دينغهاى بمقاطعة تشجيانغ . ونظرا الى ان حكومة تشينغ لم تتخذ احتياطاتها ضد الحرب على طول الساحل ما عدا قوانغدونغ وفوجيان فقد استولى البريطانيون على دينغهاى فى ٥ تموز . وبدأ القراصنة يسلبون المدينة على نحو مسعور فور نزولهم فيها . ووفقا لتصريح ادلى به احد الضباط الغزاة ، وكان شاهد عيان ، فان مشهدا مرعبا للسلب والنهب قد تلا نزول الجنود الى اليابسة ونشر الراية البريطانية . اذ شق الجنود طريقهم الى كل بيت وسلبوا محتويات كل درج وكل صندوق ، وغطيت الشوارع بالكتب والرسوم ومواد الاثاث والاوعية والمواد الغذائية . . . وجميعها اخذت . . . ولم يتوقف السلب الا بعد ان فقد كل شيء قيم . ولم يقصر البريطانيون تصرفهم الهمجى هذا على دينغهاى ، بل مارسوه فى كل مكان جرت فيه الحرب .

وبعد ان اتخذ البريطانيون دينغهاى المحتلة قاعدة لهم ، ابحرت القوة الرئيسية للاسطول البريطانى باتجاه الشمال ، فوصلت داقو قرب تيانجين ، وفى ١١ آب نقلت رسالة من الحكومة البريطانية الى حكومة تشينغ تطالبها فيها بأشياء من ضمنها اباحة تجارة الافيون ودفع

تعويض عن الاضرار وتخل عن الاراضي .

وتطور التناقض الآن بين الامة الصينية والغزاة الرأسماليين الاجانب الى حرب برز فيها مطلب جماهيرى حازم يدعو الى مقاومة العدوان . وفى مواجهة هذا الوضع انقسمت حكومة تشينغ الى فريقين، احدهما يؤيد المقاومة والآخر يؤيد التسوية . وقد دعم الفريق الاول ممثلا بلين تسه شيوى ودنغ تينغ تشن وقوان تيان بى حظر الافيون وايد المقاومة ، بينما كان الفريق الثانى مؤلفا من الموظفين الذين طالما عارضوا حظر الافيون او خافوا من ان تهز الحرب الاجنبية اسس حكمهم . وكان ممثل هذا الفريق موتشانغآ المستشار الاعظم وتشيشان نائب الامبراطور فى تشيلى وييليبو نائب الامبراطور فى مقاطعات ليانغجيانغ (جيانغسو وآنهوى وجيانغشى) . وهؤلاء هم الذين استأثروا بسلطة كبيرة لدى حكومة تشينغ . وقد ظلوا صامتين طيلة الوقت الذى كان فيه حظر الافيون والحرب يسيران على نحو جيد . ولكنهم فور سقوط دينغهاى بدأوا يكيلون الاتهامات ضد لين تسه شيوى قائلين انه قد جلب الازعاج بتسرعه الشديد فى معالجة مسألة الافيون . وعندما وصل الاسطول البريطانى الى مشارف داقو عمدوا الى الصراحة التامة وادعوا امام الامبراطور داو قوانغ ان حظر الافيون هو السبب الاكيد فى قدوم هذه القوات الاجنبية وان لين تسه شيوى قد حصل على رسائل من الجانب البريطانى وحرقها سرا . ولما ادرك الامبراطور ان الغزاة قد وصلوا منطقة تيانجين واصبحوا يهددون حكمه ، وكان حينذاك قد بدأ يرتاب بأعمال لين

ومساعديه ، اخذ يتذبذب فأرسل تشيشان الى داقو لاجراء محادثات مع الغزاة . وقد صرح تشيشان هذا فى بادئ الامر ان من الصعب كسب النصر امام " سفن العدو الثابتة ومدافعه القوية " وانه " حتى لو امكن صد العدو هذا العام فمن الممكن ان يأتى فى العام القادم ، ذلك ان الحرب اذا بدأت فانها لا تنتهى حقا " . وبهذه النظرية الانهزامية اخذ ينافح عن سياسته ، سياسة الاقناع ، التى تؤدى فى حقيقتها الى الاستسلام امام العدوان .

وعلى مائدة المفاوضات مع الغزاة عمل تشيشان مدافعا وقحا عن البريطانيين ، فقال بأنهم عوملوا معاملة سيئة ، وانهم اذا انتقموا لأنفسهم فى قوانغتشو فان لين تسه شيوى قد استحق ذلك . وذهب ابعد من ذلك فأكد للاعداء انه اذا وافقوا على الانسحاب الى قوانغتشو لاستئناف المفاوضات هناك فان جميع المسائل المعلقة ستحسم بالطريقة التى ترضيهم .

هدأ البريطانيون بعد ان رأوا ان اقتراح تشيشان مرضيا ، ثم وافقوا عليه . وفى منتصف ايلول بدأ اسطولهم يتحرك جنوبا .

وفى ١٧ ايلول قام الامبراطور داو قوانغ بتعيين تشيشان مندوبا له مكافأة له على ما سماها " جدارته " فى ثنى الاعداء عن هدفهم ، وارسله الى قوانغتشو لمتابعة المفاوضات مع البريطانيين . وبعد ذلك بأيام قليلة اعلنت حكومة تشينغ ان لين تسه شيوى ودنغ تينغ تشن مذنبان " لسوء معالجتهما المسألة كلها " واقصتهما عن منصبيهما بانتظار التحقيق .

وفى الاشهر القليلة التى احتلت فيها القوات البريطانية دينغهاى مات ٤٨٨ جنديا — اكثر من عشر العدد الاجمالى — من جراء الاوبئة المعدية ، وادخل المستشفى حوالى ١٥٠٠ جندى . وكانت السفن فى تلك الايام تعتمد على الشراع اعتمادا رئيسيا ، فتستغرق السفن البريطانية اربعة اشهر او خمسة لجلب المؤن والامدادات العسكرية من انكلترا الى الصين عن طريق رأس الرجاء الصالح . ولقد اصبح وضع البريطانيين فى غاية السوء لأن اهالى دينغهاى رفضوا التعامل مع القوات المحتلة ، بل ان الفلاحين كانوا يترصدون فى كمائن ليأسروا او يقتلوا اى جندى منهم يتجرأ على الخروج من المدينة لسلب الحبوب او الماشية او الاسماك. وعندما مر الاسطول البريطانى بساحل تشجيانغ فى طريقه جنوبا ألح الاميرال اليوت على حسم هذه المسألة بالتفاوض مع المندوب الامبراطورى بيليبو المسؤول عن حماية تلك المنطقة . كان بيليبو نائبا للامبراطور على مقاطعات ليانغجيانغ ، ولم يتسلم منصبه الجديد هذا الا بعد سقوط دينغهاى وذلك للقيام بمهمة استرجاع ما فقد من الاراضى . ولكنه كان مثل تشيشان خائنا نزاعا الى الاستسلام ، فقد عقد مع الاميرال اليوت هدنة فى ٦ تشرين الثانى مكنت البريطانيين من نقل بعض جنودهم من تشجيانغ لتعزيز قواتهم فى قوانغتشو .

وصل تشيشان الى قوانغتشو فى ٢٩ تشرين الثانى ١٨٤٠ ، ومن اجل مداراة الغزاة قام بالغاء الكثير من اعمال لين تسه شيوى ، فجرد معسكرات الدفاع من تجهيزاتها ، وخفض عدد القوات البحرية ، وسرح شجعان

الماء الذين جندهم لين ، وسمح للبريطانيين بارسال زوارقهم عبر الطرق المائية الداخلية لتقوم بالاستطلاع ، عازما على الاستسلام الى الغزاة البريطانيين .

بدأت المفاوضات ما بين تشيشان وتشارلز اليوت فى اوائل كانون الاول . اما جورج اليوت فكان قد عاد الى انكلترا بسبب المرض وخلفه جوردن بريمير على قيادة الاسطول البريطانى ، لذلك عين تشارلز اليوت ممثلا فى المفاوضات مع حكومة تشينغ . ولقد قبل تشيشان جميع طلبات تشارلز اليوت تقريبا على الرغم من انها كانت مهينة لا تطاق ، ولم يعارضه الا فى مسألة التخلى عن هونغ كونغ على مسؤوليته الخاصة ، ولكن وعده بأن يطلب له من الامبراطور داو قوانغ ان يمنحه اياها .

ولكن البريطانيين لم يطيقوا صبرا ، ففى ٧ كانون الثانى ١٨٤١ سيطروا على الحصون الموجودة فى داجياو وشاجياو . ومات قائد الحامية تشن ليان شنغ وابنه فى القتال هناك بسبب نقص الامدادات العسكرية . واغار العدو بعد ذلك على هومن حيث قاتل القائد البحرى قوان تيان بى ورجاله بجرأة وشهامة وارسل رجلا الى مدينة قوانغتشو لطلب الامدادات. غير ان تشيشان تجاهل مطالبتهم بالامدادات . فقد ارسل فى الحقيقة وفدا سافر ليلا الى تشوانبى بالقرب من هومن ووقع « مسودة اتفاقية تشوانبى » التى تم فيها تعهد اشياء كثيرة ، من ضمنها دفع مبلغ ستة ملايين دولار فضى تعويضا عن الافيون الذى اتلف واعادة فتح ميناء قوانغتشو والتخلى عن هونغ كونغ .

واشتد الاستياء الشعبي لما ابدته اسرة تشينغ من جبن فى مواجهة المطالب البريطانية ، واثير كذلك نضال جماهيرى معاد للتسوية . فتقدم فى تشنهاى من مقاطعة تشجيانغ اكثر من الف شخص بعريضة الى ييليبو طالبوه فيها بعدم سحب الحامية المحلية بعد الهدنة . وبعث آخرون برسائل يطالبون بوجوب استعادة دينغهاى . وفى قوانغتشو قابل الشعب باحتجاجات شديدة الانباء التى تقول ان القوات البريطانية قد احتلت هونغ كونغ وفقا لـ « مسودة اتفاقية تشوانبى» ، وعقد الوجهاء والمثقفون من طبقة ملاك الاراضى ، الذين ايدوا المقاومة اجتماعات للمطالبة بطرد الغزاة البريطانيين من هونغ كونغ ، وتقدم الموظفون الحكوميون المتعاطفون مع المقاومة بعريضة الى الامبراطور طلبوا فيها اقصاء تشيشان واعادة لين تسه شيوى ودنغ تينغ تشن ليقودا القتال ضد البريطانيين .

حتى تلك اللحظة والامبراطور داو قوانغ يعتقد ان الاسطول البريطانى قد اتى شمالا الى منطقة تيانجين من اجل الانتقام بعد اتلاف الافيون ، وانه بعد ان عوقب لين تسه شيوى ودنغ تينغ تشن واعيد فتح ميناء قوانغتشو للتجارة الصينية البريطانية فان الغزاة سيعيدون دينغهاى الى الصين ويعقب ذلك السلام . ولكن اليوت ،خلافا لما كان يتوقع ، كان لا يزال يطرح بأشد الطرق تنمرا مطالب غير معقولة، بينما بارقة واحدة لم تشر الى ان دينغهاى ستعاد . ولما شعر الامبراطور ان هيبة " الامبراطورية السماوية " قد تعرضت لنكسة كبيرة من جراء هذا كله بدأ يميل مرة اخرى نحو الحرب . فصرح فى ٦ كانون الثانى ١٨٤١ ان

اى تعويض لن يدفع ، كما امر نوابه وحكامه على المقاطعات السواحلية ان يهتموا بتقوية الحاميات فيها . وعندما وصلت انباء سقوط الحصون فى داجياو وشاجياو الى بكين فى ٢٧ كانون الثانى غضب غضبا شديدا واعلن على الفور الحرب . وامر ييليبو بشن الهجوم حالا لاسترداد دينغهاى ، فى حين طلب من تشيشان تعبئة جنده من اجل المعركة . وبعد ذلك بثلاثة ايام منح ييشان ابن اخ الامبراطور لقب " جنرال تهدئة العصيان " وعين لونغون ويانغ فانغ مساعدين له . وتعين على الثلاثة ان يقودوا قوة من ١٧ الف رجل شكلت من جيوش مقاطعات متعددة لمقاتلة البريطانيين فى قوانغتشو .

ولكن على الرغم من ذلك لم يكن اعلان الامبراطور للحرب دلالة على تصميمه الحقيقى على مقاومة العدوان ، بل لم يقصد منه الا " استعراض عضلات " ترقب ان يؤدى الى تنازل البريطانيين عن المطالبة بالتعويض ويؤدى كذلك الى استعادة الاراضى المفقودة . وهكذا ، عندما اساء تشيشان تقدير الوضع والتمس الاذن للبريطانيين بالاقامة فى جزيرة هونغ كونغ القريبة من قوانغدونغ مقابل اعادة دينغهاى وشاجياو ، اصبح الامبراطور مستعدا للتسوية ظانا ان تشيشان كان يحاول بذل اقصى الجهود ضمن تلك الظروف . وفى ذلك الوقت اتصل ييليانغ حاكم قوانغدونغ بالعرش وابلغه ان تشيشان قد وقع بدون تفويض « مسودة اتفاقية تشوانبى » واعدا باعطاء تعويض وبالتخلى عن هونغ كونغ ، بل وان يقوم البريطانيون فوق ذلك بطرد حامية هونغ كونغ وان يدين سكانها

" بالولاء " لهم مضطرين ويصبحون من " رعاياهم " . وصعب هذا الامر على الامبراطور كثيرا ، اذ اعتبر ان التعويض وفقدان الاراضى اساءة كبيرة الى " هيبة الامبراطورية السماوية " ، لذا راح يشتم تشيشان فى عنف واستياء وامر على الفور ان يؤتى به الى بكين مقيدا بالسلاسل . واصدر فى تلك الاثناء تعليمات مشددة الى ييشان ومساعديه بالاسراع فى حشد قوات من المقاطعات و " قمع العصاة من غير ما تهاون " .

كان البريطانيون فى ذلك الوقت قد سمعوا بقدوم امدادات عسكرية الى قوانغدونغ ، فلم ينتظروا حتى تهاجمهم القوات الصينية ، بل قام اسطولهم بضرب حصن هومن بالقنابل فى ٢٥ شباط . وقد ابدت الحامية العسكرية بقيادة قوان تيان بى مقاومة عنيفة علما ان تشيشان لم يقدم اى دعم يذكر . (كان المرسوم المتعلق بالقبض على تشيشان لم يصل الى قوانغتشو بعد .) وواصل القائد البحرى قوان بنفسه ، على الرغم من تعدد جروحه ، اطلاق النار من المدفع دفاعا عن الحصن ، ولكن العدو كان يفوقه عددا الى حد لا يرجى معه امل، لذلك سقط الحصن فى النهاية . وقضى قوان وعدة مئات من المدافعين نحبهم فى القتال بكل جرأة وبسالة . وفى ٢٧ شباط مخرت السفن الحربية البريطانية عباب الانهار الداخلية ، وسقط حصن وويونغ من غير قتال لأن حاميته كانت قد اسلمت للفرار . وامر تشيشان عند ذلك بانسحاب القوات من الموقع الاستراتيجى ارشاوى تاركا قوانغتشو مفتوحة امام العدو . ومع حلول آذار كان العدو قد اطبق على ضواحى قوانغتشو .

وصل يانغ فانغ القائد المساعد الجديد الى قوانغتشو قبل ييشان ولونغون . وبوصفه قائدا استسلاميا بكل ما فى الكلمة من معنى فقد تراجع بقواته الى المدينة فى ١٠ آذار امام العدو المتقدم من عدة اتجاهات ومكث ينتظر مصيره . وكان ان اوقف استئناف الحرب فى قوانغتشو التجارة ايقافا تاما ، فلم تتمكن السفن التجارية البريطانية التى تبلغ حمولتها ٢٠ الف طن من دخول الميناء ، وتكدس فى داخله ٣٠ مليون رطل من الشاى ، وهذا وحده يعنى ان تحصل الحكومة البريطانية على ثلاثة ملايين جنيه استرلينى من ضريبة الشاى . وازاء هذا الحجم الكبير من الفوائد من هذه الحصة التجارية اقترح اليوت الهدنة واستئناف التجارة ، الامر الذى يرضى رغبة ليانغ فانغ ، فسرعان ما قبله بارتياح عظيم . ومن خلال هذه الهدنة استؤنفت التجارة فى قوانغتشو من ٢٠ آذار الى ٢١ ايار .

ولكن هذه الهدنة لم تكن الا مجرد خطة لتمكين البريطانيين من الحصول على امدادات عسكرية . فبعد الهدنة قام اليوت بارسال بريمير الى الهند بهذا الصدد . وفى تلك الاثناء وصل ييشان الى قوانغتشو ايضا فى ١٤. نيسان .

ارسل ييشان من قبل البلاط الامبراطورى ليكون اعلى قائد فى جبهة قوانغتشو . ولقد كان تجسيدا للفساد السياسى والعجز العسكرى اللذين تعانى منهما الاسرة الحاكمة . ففى اول اتصال له بالامبراطور لدى وصوله قوانغتشو كتب يقول : ” الخطر يكمن فى الداخل وليس فى

الخارج " مفتريا بذلك على اهالى قوانغدونغ الذين ابدوا المقاومة العنيدة اذ دعاهم رعاعا ، واستأنف يقول : " ان من الاهم ان نحمى انفسنا من العامة اكثر مما نحميها من العدو . " حتى انه اعتبرهم خونة واعدم بعضهم عمدا . وهكذا كشف خوفه من الشعب وكراهيته له عن التناقضات الطبقية الحادة بين حكام اسرة تشينغ وجماهير الشعب .

وكان ييشان مفعما بالثقة بنفسه ، تلك الثقة التى لا اساس لها . فبعد وصوله الى قوانغتشو انغمس فى الملذات ولم يقم بأى مجهود للحرب ، معتقدا انه سينتصر بالصدفة . وفى ٢١ ايار امر بشن هجوم ليلى على الاسطول البريطانى الذى كان قد عزز لتوه بمدد عسكرى من الهند واصبح على اتم استعداد . فلم يتكبد العدو اية خسائر ، وانما احرق ودمر عدد كبير من المراكب التابعة للاهالى العاديين . وفى اليوم التالى شن البريطانيون الهجوم . ومع حلول يوم ٢٥ ايار تراجعت قوات حكومة تشينغ ، والتى تعد اكثر من ١٠ آلاف مقاتل ، الى داخل المدينة متخلين عن جميع مواقعها فسيطر العدو على كل موقع هام حول المدينة . وضرب البريطانيون قوانغتشو بعد ذلك بالقنابل من حصن سيفانغ الذى كان مقاما على ارض مرتفعة . وفى يوم ٢٦ ركزوا نيرانهم ، وفقا للتقارير الاستخبارية التى تأتيهم من الخونة ،على قاعة الامتحان الامبراطورى فى الزاوية الجنوبية الشرقية من المدينة حيث كان يقيم ييشان وزملاؤه ، واستبد بهؤلاء الجبناء هلع شديد بسبب قوة نيران الغزاة ، فرفعوا علما ابيض فوق سور المدينة وارسلوا مبعوثين احدهما يوى باو تشون حاكم

قوانغتشو والثانى وو شاو رونغ احد تجار الهانغ الخونة يلتمسان السلام من العدو . ووقعت « اتفاقية قوانغتشو للسلام » بعد ذلك ضمن شروط وضعها الجنرال البريطانى السير هوج جوج .

وكانت شروط اتفاقية السلام كالتالى :

١) ان ينسحب بيشان وجنده الى خارج مدينة قوانغتشو ويتابعوا سيرهم الى مسافة تبعد ٦٠ ميلا .

٢) ان تدفع فدية عن قوانغتشو تقدر بـ ٦ ملايين دولار فضى خلال اسبوع واحد ؛ وان يدفع مليون قبل غروب شمس كل يوم بدءا من يوم ٢٧ ايار .

٣) ان تبقى القوات البريطانية فى مواقعها الحالية آنذاك ، والا يعزز اى من الطرفين قواته . واذا لم تدفع الفدية كاملة خلال سبعة ايام ، فان المبلغ يرتفع ليصبح ٧ ملايين دولار فضى ؛ واذا لم تسدد خلال ١٤ يوما يصبح المبلغ ٨ ملايين ؛ واذا لم تسدد خلال ٢٠ يوما يصبح المبلغ عند ذلك ٩ ملايين . وان تنسحب القوات البريطانية الى خارج هومن بعد ان تدفع الفدية كاملة .

٤) ان يدفع للمراكز التجارية البريطانية مبلغ قيمته ٣٠٠ الف دولار فضى تعويضا عن خسائرها .

لقد كشف توقيع اتفاقية قوانغتشو هذه عن فساد طغمة اسرة تشينغ الحاكمة ، هذا من جهة ، واظهر من جهة اخرى ان ما سماه انجلز

" روح القرصنة والسلب القديمة " * لدى البريطانيين فى القرنين السادس والسابع عشر قد انتقلت بتمامها الى طبقتهم البرجوازية فى القرن التاسع عشر .

ومع ذلك فان هذه القوة المعتدية التى بدت قوية لا تقهر فى نظر حكام اسرة تشينغ الفاسدين قد تكشفت فى حقيقتها عن نمر من ورق عندما التقت الشعب الصينى العظيم وجها لوجه .

---

* انظر كتاب فريدريك انجلز : « الحملة الانكليزية الجديدة فى الصين » ، « مؤلفات ماركس وانجلز الكاملة » المجلد الثانى عشر .

٥ — اهالى سانيوانلى يهزمون الغزاة

اشار الزعيم العظيم الرئيس ماو الى ان : " ابناء القوميات المختلفة التى تتألف منها الامة الصينية يعارضون جميعا الاضطهاد الذى تفرضه عليهم الامم الدخيلة و يلجأون دائما الى المقاومة من اجل التخلص منه. " *

لقد اتخذ الشعب الصينى منذ البداية موقف المقاومة الحازمة ضد العدوان الرأسمالى الاجنبى ، خلافا لموقف الخونة من امثال تشيشان وييشان . فعندما بدأت معركة قوانغتشو انضم اليها الاهالى فى المنطقة المحيطة من تلقاء انفسهم ، اذ انتظم فى محافظة شيانغشان (تشونغشان اليوم) ٥٠٠ من شجعان الماء لمهاجمة الاسطول الغازى فى باى — أ — تان ، ونظم الاهالى فى محافظة شينآن (باوآن اليوم) ثلاثة اساطيل صغيرة من الارماث النارية ، حملت بمواد قابلة للاحتراق ، وذلك لشن غارات ليلية على السفن الحربية البريطانية الراسية عند هومن . وشن الفلاحون الذين يحرثون الحقول كذلك هجومات تلقائية ضد الغزاة .

---

* « الثورة الصينية والحزب الشيوعى الصينى » ، « مؤلفات ماوتسيتونغ المختارة » ، دار النشر باللغات الاجنبية ، بكين ، المجلد الثانى ، ص ٤٢١ .

ان الاستسلام المشين الذى ابداه ييشان والآخرون قد اثار نقمة شعبية كبيرة ادت الى تعاظم الاستياء والغضب الجماهيريين تعاظما سريعا . ومن اجل كبح التعبير عن هذه العواطف اصدر الموظفون الاستسلاميون الكبار الثلاثة ، ييشان ولونغون ويانغ فانغ ، بيانات مشتركة تحظر بكل شدة مقاومة الغزاة . ومنعوا اسر اية جماعة من جماعات العدو الخارجة من البحر الى اليابسة والمنهمكة فى شن هجمات تحرشية ، واوضحوا ان اى انتهاك لهذا الامر ستكون عقوبته وفقا للقانون العسكرى . وبذلك تكشف بكل وضوح قبح تصرف حكام اسرة تشينغ فى حماية العدو وقمع الشعب .

وعلى الرغم من ذلك واصل الشعب مقاومته الحازمة ، وشب نضال عنيف فى سانيوانلى — قرية صغيرة تبعد ٢٫٥ كم الى الشمال من مدينة قوانغتشو . لقد اثرت معركة قوانغتشو فى القرويين تأثيرا مباشرا ، واغاظت اعمال العدو الوحشية واستسلام موظفى اسرة تشينغ المشين اهالى هذه المنطقة المحيطة منذ البداية . فعندما ذهبت احدى وحدات العدو الى القرية من اجل السلب فى صباح ٢٩ ايار ١٨٤١ ابدى اهلها مقاومة عنيفة ، فقتلوا منها سبعة جنود او ثمانية ولاذت البقية بالفرار .

ان الشعب دائما ما يبرز فى نضاله قادة له ، وكان وى شاو قوانغ ، وهو بستانى يبيع منتجاته فى السوق ، اول من برز ودعا قرية سانيوانلى كلها للاتحاد والاستعداد لصد انتقام العدو . ولقد عقد اهالى سانيوانلى بقيادة وى وآخرين غيره اجتماعا لاداء القسم امام معبد قديم يقع فى الطرف

الشمالى من القرية . وبعد ان اتخذوا من علم ذى ثلاث نجوم راية لهم عاهدوا انفسهم على التقدم اذا تقدمت رايتهم والتراجع اذا تراجعت ، بلا خوف من الموت . وما ان فرغوا من استعداداتهم حتى كانوا جميعا فى شوق الى مقاتلة العدو حتى النهاية .

ومن اجل تعبئة المزيد من الاهالى اختار قرويو سانيوانلى وى شاو قوانغ وبعض الممثلين الآخرين للاتصال بالقرى المجاورة . وسرعان ما نظموا سويا قوة مسلحة كبيرة شكلت من الفلاحين والنساجين والحجارين واعضاء المنظمة السرية وبعض النبلاء الوطنيين من المدن الصغيرة فى تلك المنطقة . ومن اجل شن هجوم فعال على العدو ارسلت كل قرية ممثلين لها الى اجتماع عقد فى نيولانقانغ لمناقشة كيفية تنظيم الجماهير وتوزيعهم استعدادا للمعركة .

تقع نيولانقانغ فى منطقة مرتفعة على بعد ستة كيلومترات الى الشمال من قوانغتشو ، فبعد ظهر يوم ٢٩ ايار اجتمع هناك ممثلو مختلف القرى وتم الاتفاق على ما يلى : ١) كل قرية تشكل وحدتها الخاصة بها وتختار لها قائدها ورايتها . ٢) كل قرية تهيئ عدة نواقيس كبيرة ، فعندما تكون هناك ضرورة لاعطاء تنبيه وتضرب احدى القرى نواقيسها تبرز القرى الاخرى للقتال . ٣) كل الرجال الذين تتراوح اعمارهم ما بين ١٥ الى ٥٠ سنة يتعين عليهم القتال . ٤) فى اثناء القتال يجب اتخاذ تكتيك استدراج قوة العدو الى عمق الداخل ومن ثم استخدام قوة متمركزة لتطويقها وابادتها دون القيام بهجوم مباشر . ٥) نيولانقانغ تكون

موقعا للمعركة الحاسمة . وبعد انتهاء الاجتماع هرع الممثلون عائدين الى قراهم وسارعوا فى تلك الليلة نفسها الى التعبئة من اجل المعركة الكبيرة .

وفى الصباح الباكر من يوم ٣٠ ايار جمع اهالى منطقة سانيوانلى ، تحت علم بينغ ينغ توان (فيالق قمع البريطانيين) ، قوة مؤلفة من عدة آلاف من المقاتلين وزحفوا على حصن سيفانغ حيث كان البريطانيون يعسكرون . كان الغزاة يتناولون الفطور عندما سمعوا فجأة صيحات المعركة المدوية كالرعد ورأوا الاهالى المسلحين بالرماح والسيوف وتروس الروطان * وبنادق الفتيل يندفعون فى اتجاههم من التلال والاودية تحت رايات زاهية الالوان.ولما اخذ السير هوج جوج ، قائد القوات البرية البريطانية ، بهذه المباغتة سارع يأمر البواق باعطاء اشارة الاحتشاد ، ومن ثم قسم قواته الى ثلاث مجموعات لصد المهاجمين . ولقد بلغ عددها ما لا يقل عن الفى رجل مسلحين بالبنادق والمدافع ، وهذا العدد يقارب عدد القوة الكاملة التى هاجمت قوانغتشو .

وعندما قاد هوج جوج هجوما من المرتفعات حيث اقيم الحصن تراجعت الجماهير المسلحة بسرعة لاغراء العدو باللحاق بهم الى الداخل وفقا للخطة . ولدى وصولهم الى نيولانقانغ دعوا الى التوقف ونظموا فى ترتيبات قتالية على الارض المرتفعة . ولما احس جوج الماكر بالخطر سارع يأمر بالانسحاب ، ولكن الفرصة كانت قد فاتته . وفجأة دوت

---

* الروطان : اسل الهند ، نبات يصنع منه عصى وسلال .

طلقة مدفع تبعتها اصوات النواقيس والطبول : واذذاك برز القرويون المسلحون الذين يعدون ما يقارب ٨ آلاف مقاتل من الكمائن التى كانوا رابضين فيها حول نيولانقانغ . وبدأ العدو المذعور يضرب قوات الاهالى بالبنادق ، ولكن على الرغم من كل ما حاولوه لم يستطيعوا ايقاف الامواج المتقدمة. وهكذا بدأ هجوم اهالى منطقة سانيوانلى المعاكس. وكان احد رواد العدو اول من مات فى هذه المعركة . فأمر جوج عند ذلك بهجوم لاختراق قوات الاهالى فى موضعين بحيث يمكنهم الانسحاب الى حصن سيفانغ .

وعندما حاول الجنود البريطانيون ذلك هاجمت قوات الاهالى جناحيهم على الفور . وقد اعترف عقيد من جيش العدو ، لدى وصفه الوضع فى ذلك الوقت ، بأن الجيش البريطانى تراجع فى صفوف منفصلة عن بعضها بعضا ، فركز الصينيون حالا على مؤخرته وجناحيه وابدوا كل شجاعة وتصميم فى انهاكه ومحاصرته الى ان اصبحوا امام حرابه مباشرة . وقد استغل المهاجمون كل فرصة ممكنة لخوض اشتباك متلاحم مع القوات البريطانية ، كفرصة عبور القوات المنسحبة لأحد الانهار او زحفهم فى ارتال منفردة على طول ممرات ضيقة .

واعيق العدو المنهزم اليائس بعاصفة رعدية بللت مسحوق البارود الذى كان فى حوزتهم وجعلت بنادقهم عديمة الفائدة . وغمر المطر الشديد الممرات بين حقول الارز ، فأحالها الى امتداد واسع من الماء . ووجد العدو الذى كان يلبس احذية عسكرية جلدية ان من

الصعب جدا السير عبر ارض موحلة زلقة ، فى حين كان اهالى اكثر من مائة قرية فى منطقة سانيوانلى يلبسون ملابس قشية واقية من المطر وقبعات خيزرانية ويقاتلون بعنف وشجاعة اكثر من ذى قبل . اما النساء والمسنون والضعفاء ، الذين تقرر اجلاؤهم اصلا ، فقد جاءوا للمشاركة فى القتال متسلحين بالمجارف والمدمات * الحديدية حتى الاطفال الذين لا يتجاوز عمرهم ١٥ سنة ساندوا المقاتلين الفلاحين باطلاق صيحات القتال . والنساء اللواتى لم يأتين للقتال بادرن من تلقاء انفسهن الى طبخ الطعام وقمن بنقل الوجبات الى الجبهة . وقد اظهر هذا التنسيق الاختيارى بين عشرات الآلاف من الاهالى فى قتالهم العدو سوية قوة الجماهير المسلحة اظهارا تاما .

طارد المقاتلون العدو فاختبأ بعض جنوده تحت تعريشات الخيار والفول ، وسقط بعضهم فى الحقول المغمورة بالمياه ، والقى آخرون اسلحتهم ورفعوا ايديهم مستسلمين . وهكذا جرد " طاغية البحر " المستبد من هيبته .

وحوالى الساعة الرابعة بعد الظهر وصل جوج وقواته المهزومة الى حصن سيفانغ ، فاكتشفوا ان السرية الثالثة من فوجهم السابع والثلاثين ، والتى كانت مكلفة بالسير فى المؤخرة ، قد ضلت . فأرسلت لانقاذها كتيبة مسلحة بأحدث الاسلحة ، البنادق المضادة للماء . واتضح لها

---

* المدمات : مفردها مدمة ، مشط البستانى .

ان هذه السرية الثالثة كان قد طوقها المقاتلون من الاهالى خلال الانسحاب . وقد وقف جنودها جنبا الى جنب فى تشكيل رباعى وراحوا ينسحبون خطوة خطوة ، آملين بذلك ان ينجوا من الابادة . ولكنهم لم يحسبوا حسابا للطريقة البارعة التى سلكها الشعب الصينى البطل ازاء مقاومتهم العنيدة . لقد استخدم المقاتلون القرويون رمحا معقوفا لاصطياد جنود العدو من تشكيلهم واحدا اثر واحد وانتزاع البنادق من ايديهم بعد ذلك .

ولم تستطع هذه السرية على الرغم من الامدادات العسكرية التى ارسلها جوج ان تخترق الحصار الا بعد الساعة التاسعة مساء . وقد طاردها المقاتلون الغاضبون وحاصروا حصن سيفانغ محاصرة مشددة حتى صباح ٣١ ايار .

وتحقق نجاح بارز فى القتال يوم ٣٠ ايار . وقتل وفقا للمعلومات المسجلة فى تلك الفترة ما يزيد عن مائتى جندى واوذى اكثر من ذلك ، واسر بضعة عشر جنديا وغنمت كميات كبيرة من المعدات العسكرية .

وانتشرت انباء الانتصار العظيم فى سانيوانلى بين القرى المحيطة بقوانغتشو انتشارا سريعا . فنظم اهالى القرى البعيدة الذين لم يسمعوا بما كان يجرى ، انفسهم فى ٣٠ ايار ، وراحوا يتوافدون ليلا الى حصن سيفانغ . وفى الساعة العاشرة من صباح اليوم التالى كان الحصن محاصرا بعشرات الالوف من الجماهير المسلحين الذين خفقت راياتهم ، وارتفعت فوق رؤوسهم غابات من السيوف والرماح ، ودوى صدى

صيحاتهم القتالية فى كل مكان . واسقط فى يد الغزاة فلم يدروا اين يتجهون هربا من مواجهة هؤلاء المقاتلين الاشداء .

وفى تلك اللحظة العصيبة من المجابهة انسحب جيش حكومة تشينغ ، المسلح تسليحا كاملا والذى يربو عدده على ٨ آلاف مقاتل ، من مدينة قوانغتشو مطوى الاعلام استجابة لشروط « اتفاقية قوانغتشو للسلام » الاستسلامية . وتظاهر هذا الجيش بأنه لا يرى عشرات الالوف هذه التى تطوق الغزاة . وحصل العدو المحاصر فى مرتفعات حصن سيفانغ على الاشارة ، فكتب جوج رسالة على الفور قام بتهريبها احد الخونة الصينيين عبر هذا الحصار الشديد ، يطلب فيها المساعدة من يوى باو تشون حاكم قوانغتشو . وهدد جوج قائلا انه ما لم تقم حكومة تشينغ بتشتيت هذه القوات الشعبية فورا ، فسيعتبر الجيش البريطانى ان نشاطاتهم هذه قد اقرت رسميا ، وسيلغى بذلك « اتفاقية قوانغتشو للسلام » ويتقدم لمهاجمة المدينة واحراق كل بلدة وقرية فى جوارها .

وبعد ان قرأ ييشان ، الذى كان طيلة ذلك الوقت مرعوبا من الغزاة ، رسالة جوج التهديدية امر يوى باو تشون على الفور بمساعدة العدو المحاصر . فأسرع يوى باو تشون ، وكان خائنا ، الى معسكر العدو ليوضح لهم ان حكومة تشينغ لا تعرف شيئا عن نشاطات القوات الشعبية وانه لا يوجد بين هذه القوات ضباط تابعون لحكومة تشينغ . ولكى يظهر اخلاصه التام للبريطانيين طلب منهم من غير شعور

بالخجل ان يرسلوا معه ضابطا ليتحدث الى القوات الشعبية . فاختار جوج القائد مور الذى ذهب وفى يده علم ابيض وبرفقته مترجم . شعر المقاتلون الفلاحون باستياء شديد لدى رؤيتهم يوى باو تشون يسير فى اتجاههم مع العدو جنبا الى جنب ، فوجهوا بنادق الفتيل التى فى ايديهم الى مور ومنعوه من الاقتراب اكثر من ذلك . لذا اجبر على ان ينسل عائدا .

وعرف يوى باو تشون ان عليه الا يتحدى الجماهير الساخطة فطلب اليهم بطريقة كلها استرضاء ان ينسحبوا . ولكنهم استنكروا امامه وفى غضب شديد خيانته للبلاد ، وتحول استنكارهم الغاضب الى بلبلة واضطراب . ولما رأى يوى باو تشون تأزم الموقف اتجه الى ابناء طبقة ملاك الأراضى . وهدد من اجل دعم مطلبه قائلا ان عليهم ان يجدوا بعض الوسائل لتشتيت القوات الشعبية ، وان هذه المسألة تخصهم كما تخص الشعب العادى ، وانه اذا لم يتشتت هذا الحشد وحدث امر ما فانهم سيتحملون مسؤولية كل شىء وسيدفعون كذلك فدية المدينة البالغة ٦ ملايين دولار فضى . وكان ابناء طبقة ملاك الاراضى قد استثارهم السخط الذى استشعروه بعض الوقت فشاركوا فى هذا النضال ضد البريطانيين مدفوعين بالرغبة فى حماية اسرهم وممتلكاتهم . ولكنهم كانوا على الرغم من ذلك كله من الفصيلة نفسها ، فصيلة بيروقراطيى اسرة تشينغ ، وكانوا بالطبع عاجزين عن الصمود امام الموظفين . لذلك عندما هددهم يوى باو تشون بهذه الطريقة اضطربوا وترددوا . فبعضهم

انسل هاربا ، بل قام آخرون بمساعدة يوى من خلال الكلمات الطنانة واساليب الخداع لاقناع الجماهير بالتفرق .

وبعد ان رفع الحصار عن حصن سيفانغ لم يجرؤ الغزاة على البقاء فى قوانغتشو طويلا ، فانسحبوا فى اليوم التالى من هومن بهدوء .

وشتتت الجماهير تشتيتا مؤقتا ، الا ان لهيب النضال لم ينطفئ . فعندما طلب البريطانيون من تشارلز اليوت ان يصدر ، حفظا لماء الوجه ، بيانا فى ٧ حزيران لتغطية هزيمتهم النكراء ، اعلنت الجماهير على الفور استنكارها وتحدتهم ان يخوضوا معركة اخرى . ولكن العدو كان قد احس عند ذلك بقوة الشعب فلم يجرؤ على قبول التحدى .

كان النضال المعادى للبريطانيين فى سانيوانلى اول معركة تلقائية يخوضها الشعب الصينى ضد العدوان الاجنبى فى الازمنة الحديثة . وكان صفحة باهرة فى تاريخ النضال الثورى الوطنى الحديث للشعب الصينى . وقد رفع معنويات الشعب عاليا وطامن من كبرياء الغزاة الاجانب ، وشجع اهالى قوانغدونغ وشعب البلاد كلها فى نضالهم ضد العدوان الاجنبى وبين لهم ان قوات الحكومة الاقطاعية لا يمكن الاعتماد عليها وان العدو الاجنبى ليس مخيفا . ودحض بقوة حجة دعاة التسوية والاستسلام القائلة بأن الغزاة لا يمكن ان يقهروا ولديهم هذه السفن الحربية المتينة والمدافع القوية ، وبرهن على ان الشعب حينما تسلح استطاع ان يهزم الغزاة على الرغم من تجهيزاتهم المتفوقة .

٦ – توسيع الحرب العدوانية

هزم ييشان وزملاؤه واستسلموا للغزاة ، ولكنهم كذبوا على الامبراطور داو قوانغ فى مذكرتهم عن معركة قوانغتشو ، اذ جعلوها " نصرا عظيما " مدعين ان فدية المدينة البالغة ٦ ملايين دولار فضى ستدفع تسديدا للديون المترتبة على تجار الهانغ وان انسحاب قواتهم الاضطرارى من قوانغتشو انما كان بهدف قمع قطاع الطرق فى الريف . وفى النهاية طلبوا من الامبراطور ان يوافق على مطالبة البريطانيين باستئناف التجارة . ولما استنتج الامبراطور من مذكرتهم ان على حكومته الا تقلق بعد ذلك من جانب البريطانيين ، معللا ذلك بما تلقوه من عقوبات ، وافق على استئناف التجارة . وهكذا قامت هذه المجموعة الفاسدة من ارستقراطيى اسرة تشينغ بخداع الآخرين ، بل انها خدعت نفسها كذلك حين كتبت بكل وقاحة وادعاء عن " انتصارها العظيم " .

ولكن البريطانيين عادوا مرة ثانية عندما اصدرت حكومة تشينغ تعليماتها الى القوات الساحلية بالانسحاب معتقدة ان الحرب قد انتهت .

وعندما تسلمت الحكومة البريطانية تقرير تشارلز اليوت حول مسودة « اتفاقية تشوانبى» فى نيسان ١٨٤١ شعرت باستياء شديد لما كان قد

انتزع من الصين . ولذلك قامت بتنحية اليوت عن جميع مناصبه فى الصين والغت تلك الاتفاقية وارسلت هنرى بوتنجر ، وهو سياسى مخادع معروف بمشاركته فى النشاط الاستعمارى فى الهند ، ليكون مبعوثا سياسيا مطلق الصلاحية للعمل على زيادة حجم غزو الصين بحيث يمكن كسب مزيد من الامتيازات والفوائد .

وعندما وصل بوتنجر الى ماكاو فى اوائل آب ١٨٤١ ارسل مذكرة الى سلطات مقاطعة قوانغدونغ مع صيغة موجزة لشروط السلام . كما اخبر ييشان ان اليوت قد عاد الى انكلترا وانه قد عين بدلا منه ، وهدد بأن قواته ستتجه شمالا وتهاجم اذا لم تعين حكومة تشينغ مندوبين عنها مطلقى الصلاحية يفوضون بقبول شروط السلام كاملة .

وقبل وصول صيغة شروطه التى ارسلها ييشان الى بكين انطلق بوتنجر شمالا بأسطوله الذى شن هجوما مباغتا على شيامن فى ٢٦ آب . وقضى قائدا الحامية جيانغ جى يون ولينغ تشى نحبهما فى القتال ، وسقطت جزيرة قولانغيوى ومدينة شيامن فى يد الغزاة .

ولم يستيقظ الامبراطور داو قوانغ من احلامه المولعة بالسلم الا عندما وصل نبأ سقوط شيامن الى بكين . فسارع يأمر المقاطعات الساحلية بتعزيز قواتها الدفاعية ، ولكن الاسطول البريطانى كان قد وصل حينذاك الى ساحل تشجيانغ . وفى ٢٥ ايلول هاجم الغزاة البريطانيون دينغهاى . فقام المدافعون ، وعددهم ٥ آلاف رجل ، بمقاومة صامدة ضد العدو تحت قيادة قه يون فى وتشنغ قوه هونغ ووانغ شى بنغ وظلوا

يقاتلون حتى آخر رجل من رجالهم . وبعد نضال عنيف استمر ستة ايام بلياليها سقطت دينغهاى فى يد العدو مرة ثانية . وقد ابدى الجنود الصينيون شجاعة عظيمة فى المعركة اذ قتلوا وجرحوا كثيرا من الغزاة .

وبعدها هاجم البريطانيون تشنهاى . كان يوى بو يون قائد الحامية فى تشاو باو شان الواقعة خارج المدينة جبانا . فما ان نزل العدو الى اليابسة حتى ولى بجنوده الادبار مذعورا . فتولى القيادة عند ذلك يويتشيان مندوب الامبراطور ونائبه على مقاطعات ليانغجيانغ ، ولكنه اخفق فألقى نفسه فى النهر منتحرا . وسقطت تشنهاى فى ١٠ تشرين الاول . وبعد ذلك بثلاثة ايام هاجم العدو نينغبوه واستولى عليها . وعلى الرغم من ان هروب يوى بو يون قد اثر الى حد ما فى معنويات الجنود الصينيين فى معركة تشنهاى ، الا ان معظمهم خاض قتالا عنيفا من تلقاء نفسه وتلاحم مع العدو مرات ومرات .

وبعد ان احتل الغزاة البريطانيون نينغبوه عينوا تشارلز جوتزلاف حاكما عليها ، وهو الذى كان من خلال مظهره كمبشر عميلا ذا اهمية وقد اشترك فى حملة اللورد امهيرست (انظر الفصل الرابع) . ثم قاموا بسلب المدينة ، اغنى المراكز التجارية فى مقاطعة تشجيانغ ، فحملوا من العملة وسبائك الفضة من خزانة ولاية نينغبوه وحدها ما قيمته ١٢٠ الف دولار وسلبوا من الحبوب ما يكفيهم للتزود مدة سنتين .

وادت حملة تشجيانغ الى تدهور حقيقى فى الوضع . فقد فقدت حكومة تشينغ جيوشا ومدنا واضحت ايامها معدودة . وبات القيام

باستعداد للحرب امرا ضروريا . ففى ١٨ تشرين الاول منح الامبراطور ابن اخيه ييجينغ ، وهو مستشار مساعد للامبراطور ، لقب " الجنرال ذو الهيبة العظيمة " ، وعين ونوى وتييشون مساعدين له ، وعين نيوجيان نائب الامبراطور على مقاطعات ليانغجيانغ ، ووضعت تحت تصرفهم قوات حشدت من الداخل ، وارسلوا الى تشجيانغ لمعالجة الوضع العسكرى .

وجاء ييجينغ ، مثله فى ذلك مثل ييشان ، تجسيدا للقوى الفاسدة داخل الحكم الاقطاعى المتحدر ، وقد سلك طريق الانهزامية والاستسلامية نفسه الذى سلكه ييشان . ففى رحلته الى تشجيانغ مصحوبا بكثير من اقربائه واصدقائه وحاشية زكاها له الامراء والوزراء ، اضاع وقته فى ارتياد الاماكن التى تستحق المشاهدة وفى الانغماس فى الملذات . فأمضى فى سوتشو شهرا طغى خلاله فى ممارسة سلطاته من غير ان يقوم بأى استعداد لاسترجاع الاراضى المحتلة . واقترح بعضهم ان تنظم قوات محلية تنشر حول نينغبوه وتشنهاى ودينغهاى بحيث تستطيع فى اى مكان وفى اى وقت ان تقوم على شكل فرق صغيرة بشن غارات ترهق العدو ، وان يستمر ذلك الى ان تحين فرصة يكون العدو فيها قد انهك تماما فتقوم القوات النظامية بشن هجوم قوى . ولكن ييجينغ ، كسابقه ييشان ، تخوف من الشعب ، فطبيعى ان يكون قبوله بخطة تحتاج الى مساندة شعبية امرا مستحيلا .

وفى يوم من ايام كانون الثانى عام ١٨٤٢ رأى ييجينغ فى نومه

ان البريطانيين قد فروا بسفنهم الى عرض البحر طلبا للنجاة . واجمعت الحاشية على ان هذا "بشير خير" . وادعى ونوى بعد ذلك انه رأى الرؤيا نفسها ، فسر ييجينغ وقرر استئناف الحملة على الفور . ولكن عندما وصل هؤلاء النبلاء والامراء شاوشينغ فى تشجيانغ اخذوا يشربون كل يوم حتى الثمالة من خمر تلك المنطقة المشهور ، منتظرين بكل تراخ وكسل ذلك الانتصار الذى حلموا به .

وفى ١٠ آذار قسم ييجينغ قواته الى ثلاث مجموعات كان عليها ان تحاول استعادة نينغبوه وتشنهاى ودينغهاى فى وقت واحد . وكان متأكدا تمام التأكد من النجاح ، مدخلا فى حسابه العمل المنسق داخل هذه المدن الثلاث ، لذلك امر جنوده بالتسلح بالرماح والسيوف فقط لا بالاسلحة النارية . وكان الغزاة البريطانيون قد حصلوا على معلومات حول خطط ييجينغ واستعدوا له منذ وقت بعيد ، فما كادت القوات الموجهة للاستيلاء على نينغبوه تدخل المدينة حتى وقعت تحت نيران البريطانيين المتمركزين فى البيوت المصطفة على كل جانب من جوانب الشوارع . لذلك انسحبت فى بلبلة واضطراب متعرضة لاصابات كبيرة . اما المجموعتان الاخريان من قوات ييجينغ فقد هزمتا كذلك بسبب القيادة الرديئة . وانتهز العدو الفرصة لاحتلال تسيشى بينما فر ييجينغ ورجاله الى هانغتشو . ولما اصبح يخاف القتال بعد ذلك فقد آثر التسوية وتمسك بها منذ ذلك الوقت . وهكذا انتهت معركة تشجيانغ ، ومر ييجينغ ، شأنه شأن ييشان ، بثلاث مراحل من السلوك : التصرف

الطائش ثم التراجع لدى اول صدام مع العدو واخيرا الاستسلام برعب وجبن .

كانت معركتا قوانغتشو وتشجيانغ اللتان قاد القوات الصينية فى الاولى منهما ييشان وفى الثانية ييجينغ من اكبر المعارك التى خاضتها حكومة تشينغ ضد الغزاة البريطانيين فى حرب الافيون ، اذ اشترك فى كل منهما نحو من ٢٠ الف جندى ، وكانت نتيجتهما الاخفاق بسبب اضطراب القيادة وتخبطها . ولكن السبب الرئيسى فى هذه الهزائم هو الخصومة الحادة بين الشعب والحكام الاقطاعيين المتفسخين . فالطبقة الحاكمة فى اسرة تشينغ لم تجرؤ على تنظيم الشعب للمقاومة بل اتخذت ازاءه فى الحقيقة وضعية معادية منذ البداية ، فعندما هب الشعب من تلقاء نفسه يناضل ضد الغزاة عملت على كبح وافساد نضاله حتى انها لفقت ضد المناضلين تهمة الخيانة الوطنية . وهذا ما قرر هزيمتها التامة . ولو لم يكن بلاط تشينغ الامبراطورى فاسدا جدا لاستطاع القضاء على الغزاة الذين جاءوا من موطنهم البعيد بقوة لا تزيد عن ١٥ الف رجل واسطول لا يزيد عدده عن ١٠٠ مركب متنوع .

ان فساد وضعف حكومة تشينغ اللذين كشفا بهزائمها المتكررة فى الحرب قد اثارا نقمة شعبية عارمة . كما ان الانفاق الضخم على الحرب واستغلالها من قبل الموظفين قد زادا معا العبء على الشعب ، ذلك العبء الذى زاد من حجمه ايضا افتقار جيش حكومة تشينغ للنظام والانضباط ، فقد عانى الشعب من الابتزاز والمضايقات على يد افراد هذا الجيش .

وهذا كله ادى الى اضطراب شعبى والى ظهور احتجاجات فى كل مكان ، كما ادى الى زيادة حدة التناقضات بين الشعب والحكام الاقطاعيين . فعم البلاد كلها امتناع عن دفع ايجارات الاراضى وغير ذلك من النضالات الفلاحية الضيقة النطاق . وفى بداية عام ١٨٤٢ قامت جمعية سرية يقودها تشونغ رن جيه بانتفاضة فى محافظة تشونغيانغ بمقاطعة هوبى . وعلى الرغم من ان هذه الانتفاضة قد احبطت ، الا انها هزت سلطة تشينغ هزا شديدا ، واقنعتها بأنه اذا لم يتم انهاء الحرب الاجنبية فورا فستنتشر الاضطرابات الداخلية لتجعل الوضع اكثر تدهورا . وفى ذلك الظرف العصيب قام ليو يون كه ، حاكم مقاطعة تشجيانغ بتقديم مذكرة للامبراطور داو قوانغ تتضمن " ١٠ نقاط للاعتبار " ناصحا العرش بالتوصل الى تسوية مع المعتدين فى اسرع وقت ممكن . وذكر الامبراطور ، مؤكدا على عدم استقرار الوضع الداخلى ، بأنه اذا ما استمرت الحرب فمن المحتمل ان ينتهز الشعب الفرصة ويثور . وبذل موظفون آخرون من مؤيدى التسوية اقصى جهودهم كذلك لانهاء الحرب عن طريق المفاوضات فى ذلك الوقت .

ان تطور النضال الشعبى سيهدد حكم طبقة ملاك الاراضى تهديدا مباشرا ، فى حين ان السماح بالتجارة مع الغزاة البريطانيين ودفع التعويضات لهم والتخلى لهم عن الاراضى لن يعرض حكمها للخطر فى تلك الفترة الموقتة . لذلك آثرت حكومة تشينغ ان تنهى الحرب بتقديم تنازلات للغزاة الاجانب واجراء مفاوضات للسلم . فبعد هزيمة

بيجينغ فى تشجيانغ اصدر الامبراطور داو قوانغ امرا بحظر اية مقاومة ضد الجيش البريطانى ومنع الشعب من اسر جنوده كذلك . واصدر فوق ذلك مرسوما يقضى بأن يعرض لعقوبة الاعدام كل من قتل ولو واحدا من جنود الاعداء وان يحاكم على ذلك الموظفون المسؤولون ايضا . وفى المدة نفسها تقريبا ارسل الامبرطور نبيلا مانشوويا يدعى تشيينغ كان حاكما لشنغجينغ فى الشمال الشرقى وكذلك ييليبو الذى كان قد عزل من منصبه السابق كنائب للامبراطور على مقاطعات ليانغجيانغ بسبب استسلامه للمعتدين ، ارسلهما الى تشجيانغ للتفاوض مع البريطانيين .

وعندما وصلا الى تشجيانغ كتبا الى الغزاة يطلبان عقد هدنة واجراء مفاوضات للسلم . ومن اجل ان يكسبا حظوة لديهم قاما من جانبهما فقط باطلاق سراح الاسرى البريطانيين . ولكن بوتنجر لم يبد اى اهتمام بالتفاوض معهما فى تلك اللحظة . فقد حصل على معلومات من المبشرين تفيد بأن حكومة تشينغ تقوم بتعزيز دفاعها فى الشمال حول داقو الواقعة قريبا من تيانجين ، بينما تترك حوض اليانغتسى الادنى ضعيف الحماية جدا . لقد كان بوتنجر مدركا ان هذا الحوض اغنى منطقة فى الصين وان نانجينغ باعتبارها ميناء رئيسيا على نهر اليانغتسى وكذلك على القناة الكبرى فانها بمثابة مقتل لسلطة تشينغ . فالكميات الهائلة من الحبوب والفضة ، التى كانت تجمع جنوب اليانغتسى ، كانت تكدس فى نانجينغ اولا ومن ثم تشحن فى القناة الكبرى متوجهة شمالا الى بكين مارة بتشنجيانغ . ولهذا اعتقد بأن جيشه اذا استطاع الاستيلاء على

نانجينغ فانه سيمسك بخناق حكومة تشينغ ويشكل عليها ضغطا يجبر على قبول شروطه العدوانية كلها من غير تحفظ . وبناء على ذلك رفض مقترحات السلم التى تقدم بها تشيينغ وييليبو ، وقرر ان يشق طريقه فى اليانغتسى فيعترض القناة الكبرى ويستولى على نانجينغ .

وفى اوائل ايار ١٨٤٢ انسحب الغزاة من نينغبوه وتشنهاى متخذين من جزيرة تشوشان قاعدة لهم . وفى ١٨ ايار احتلوا تشابو ، وهى مدينة ساحلية هامة فى تشجيانغ . وبدأوا بعد ذلك يشنون غارات على نهر اليانغتسى .

ان ووسونغ الواقعة عند مصب اليانغتسى هى مدخل هذا النهر الكبير . وعلى طول نهر هوانغبو المجاور كانت هناك سلسلة من الحصون . وكانت الحصون الواقعة فى الجانب الغربى من نهر هوانغبو ، والقريبة من ووسونغ محمية ، قبل بدء الهجوم البريطانى ، بقوات تحت قيادة تشن هوا تشنغ القائد العسكرى لمقاطعتى جيانغنان (جيانغسو وآنهوى) والذى قد ناهز السبعين ، اما الحصون المجاورة لباوشان فكانت محمية بأكثر من ثلاثة آلاف مقاتل تحت قيادة نيو جيان نائب الامبراطور على مقاطعات ليانغجيانغ . وعندما بدأ الجيش البريطانى هجومه فى يوم ١٦ حزيران قاوم القائد تشن مقاومة بطولية . فقد وقف فى مكان عال متحديا نيران العدو الغزيرة وامر جنوده بصد العدو بنيران المدفعية . واستمر القتال العنيف اكثر من ساعتين تضررت خلالها بعض السفن البريطانية واخفق العدو فى النزول الى اليابسة فى اثناء هجومه المباشر .

فحاول الغزاة الماكرون عند ذلك شق طريقهم الى اليابسة مبحرين بقوارب صغيرة فى احد الانهار الصغيرة ، وذلك لمهاجمة جانب الحصون الغربية عن طريق الدوران حول الجهة الخلفية من ووسونغ . ولكن احبطت هذه الخطة الثانية ايضا لما واجهه الغزاة من مقاومة صامدة على يد قوات الحامية . وعندما علم نيو جيان ان قوات تشن قد عطلت بعض السفن البريطانية قام بقيادة امدادات عسكرية الى حصون ووسونغ . ولكن مع ذلك تصرف هذا النائب الاحمق الفاسد فى ميدان المعركة كما لو انه يستعرض حرس الشرف . ولما تحقق العدو مما كان يجرى بدأ فى اطلاق نيران مدافعه . وما كاد نيو جيان يسمع صوت القصف حتى اندفع خارجا من محفته فى جنون ناسيا قبعته وحذاءه ، واندس بين رجاله ينشد الاختفاء . وهزمت الامدادات عند ذلك هزيمة منكرة ، فانتهز الغزاة الفرصة فى النزول الى اليابسة وشنوا هجوما مباشرا على الحصون الغربية . فقاتل القائد تشن ورجاله بشجاعة مستخدمين رماحهم فى اشتباك متلاحم ومظهرين بطولة عظيمة . وواصل تشن القتال على الرغم من اصابته بجروح كثيرة الى ان مات فى النهاية . وسقطت الحصون الغربية امام الهجوم الذى داهمها من جميع الجوانب . وسقطت الحصون الشرقية فى الوقت نفسه تقريبا ، وهكذا تمكن الغزاة من الاستيلاء على باوشان وشانغهاى .

لقد سيطروا على شانغهاى مدة خمسة ايام ، لم يكتفوا خلالها بابتزاز ٥٠٠ الف دولار فضى من اهاليها فدية للمدينة بل سلبوا المدينة

وضواحيها سلبا وحشيا . فأخذوا كثيرا من اشياء الزينة الجميلة من داخل معبد المدينة واحرقوها . ونهبوا المراهن كذلك بحيث ان جميع الجنود البريطانيين كانوا فى بداية الصيف يشربون الخمر ويحتفلون فى الشوارع وفى ايديهم المراوح المزخرفة ، ويرتدون معاطف من الحرير او الساتان مزينة بالفرو الثمين . وهذه هى " الحضارة الغربية " التى يتبجح بها اللصوص الامبرياليون كثيرا !

وفى نهاية حزيران وصل المزيد من السفن الحربية البريطانية الى ووسونغ ، وفى اوائل تموز بدأت تبحر فى اليانغتسى متجهة نحو الاعلى .

ان مصب اليانغتسى يتسع لدى اقترابه من البحر ، وعلى طول القسم السفلى منه تمتلئ معظم ضفتيه بالطمى وتكثر ركامات رملية فى قاعه تجعل مجارى المياه تدور فى تعرج ، لذا فان امتداد النهر على هذا النحو يؤمن حماية طبيعية جيدة . ولكن حكومة تشينغ لم تقم بعد هزيمة تشجيانغ ، تمسكا منها بسياسة التسوية والاستسلام ، بأية محاولة لتعزيز الدفاع على المناطق الواقعة فى ضفتى النهر فى اعلى ووسونغ . وبعد ان فر نيو جيان من باوشان الى نانجينغ اصبح فى رعب شديد ، من سفن العدو الحربية واسلحته ، اكثر من ذى قبل ، واعتبر ان البريطانيين لا يمكن ان يهزموا بالوسائل العسكرية . فلم يكتف بأن منع بكل خسة القوات المتمركزة فى الضواحى والمحافظات على طول النهر من اطلاق النار على العدو ، بل امر هذه القوات بأن تقدم للبريطانيين

الابقار والاغنام والخمر وغير ذلك من الطعام . وهكذا تمكن العدو من ارسال قوارب صغيرة لمسح مجارى المياه ، واستأنف تقدمه فى النهر غربا .

وفى ١٥ تموز وصل الاسطول البريطانى العدوانى الى ميناء تشنجيانغ النهرى .

ان تشنجيانغ ، وهى مدينة تجارية مزدهرة تتألف من ١٠٠ الف اسرة ومزودة بحماية طبيعية جيدة وطاقة بشرية واسعة ، تستطيع الصمود بكل تأكيد ، وهذا ما سيعوق هجوم العدو على نانجينغ . ولكن حاميتها ضعيفة جدا ، تتألف من اكثر من الف جندى من بين فيالق الرايات الثمانية وحوالى الفى رجل من المقاطعات الاخرى كانوا متمركزين فى الضواحى . وفى ٢١ تموز نزل ما يقارب ٧ آلاف جندى بريطانى واحتلوا جميع المواقع خارج المدينة . ثم ركزوا قواتهم لشن هجوم على المدينة نفسها . وقاموا بنسف بوابتها الغربية بالديناميت واستخدموا سلالم مدرجة لارتقاء اسوارها . فقاومت الحامية مقاومة عنيفة لا هوادة فيها . ولقد كتب احد الضباط البريطانيين فى مذكراته يقول : " ان اشد المقاومات عنادا وصمودا قد قامت بها قوات تشينغ فى هذا الموقع ، فقد كافحوا عن كل شبر من الارض ، بحيث ان كل زاوية وكل كوة استولينا عليها برأس الحربة . . . " * كان المقاومون يندفعون فى وجه الحراب البريطانية ،

---

* ج . اليوت بنغهام « قصة الحملة على الصين » ، هنرى كولبرن ، لندن ، ١٨٤٣ ، المجلد الثانى ، ص ٣٤٨ .

او يقفزون احيانا على حارس بريطاني فيقبضون عليه ويقفزون به من فوق سور المدينة وهم ما يزالون يمسكون به بثبات . وقد حدث مرة او مرتين ان القى جندى بريطانى من فوق سور المدينة قبل ان يتمكن من استخدام حربته ضد مهاجمه .

ان دفاع تشنجيانغ البطولى قد جعل الامور صعبة امام الغزاة ، فقاموا بالانتقام القاسى من اهالى المدينة وسلبهم بوحشية ، مستخدمين فى ذلك القتل والاحراق . ولقد اشاد انجلز فى حديثه عن وحشية البريطانيين بالروح القتالية العظيمة التى تحلى بها مدافعو تشنجيانغ ، فكتب يقول : " . . . على الرغم من ان جنود اسرة تشينغ ربما كانت تنقصهم المهارة العسكرية ، الا انهم لم يكونوا مفتقرين للشجاعة والمعنويات المرتفعة . لقد قاتل هؤلاء الجنود الذين كانوا لا يعدون اكثر من ١٥٠٠ مقاتل بمنتهى اليأس ، وقتلوا عن آخرهم . . . . ولما رأى القائد المسؤول انهم قد خسروا يومهم اشعل النار فى بيته ومات وسط السنة اللهب . وفقد البريطانيون فى هذا الهجوم مائة وخمسة وثمانين رجلا — تلك الخسارة التى انتقموا لها بأشد اعمال السلب فى المدينة رعبا — لقد ادار البريطانيون الحرب بروح العنف الوحشى ، تلك الروح التى كانت صورة مطابقة للروح التى نشأوا عليها فى جشعهم فى اعمال التهريب . ولو ان الغزاة واجهوا فى كل مكان مقاومة شبيهة بهذه المقاومة لما وصلوا نانجينغ ابدا." *

* فريدرك انجلز : « الحملة الانكلزية الجديدة فى الصين » ، « مؤلفات ماركس وانجلز الكاملة » ، المجلد ١٢ .

وعلى الرغم من سقوط تشنجيانغ فان الحركة الشعبية الصينية لمقاومة البريطانيين قد استمرت فى تطورها . وفى تلك الاثناء مات عدد كبير من الجنود البريطانيين بوباء الكوليرا الذى شل نشاط جيشهم تقريبا . وقد ذكر احد الغزاة فيما بعد يقول : " . . . وقبل ان ينتهى الاسبوع هلك اربعون آخرون فى ذلك الفوج (الفوج الثامن والتسعين) وحده من جراء الكوليرا " * لقد كان هناك بالفعل كثير من المرضى فى جميع سفن العدو الحربية منها او التموينية ، وكان البريطانيون يشكون نقصا كبيرا فى عدد العمال والمساعدين مما اضطر بعض سفنهم الى التخلى عن مهامها . ولقد قيل انه مات بالوباء جميع من على متن احدى سفن التموين البريطانية ما عدا ثلاثة بحارة وخادما . فلو ان حكومة تشينغ استغلت هذا الوضع الملائم وقاومت بثبات او ضربت حصارا على البريطانيين لتحول بينهم وبين امداداتهم لما كان بمقدور العدو على الاطلاق الوصول الى نانجينغ . ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، وذلك بسبب سياستها الداخلية فى معاداة الشعب وسياستها الخارجية فى الجنوح الى التسوية والاستسلام للغزاة . وهذا ما ادى بها الى هزيمة عسكرية على الرغم من ان الشعب والجنود وبعض القادة قاتلوا قتالا بطوليا وعلى الرغم من توفر ظرف ملائم كان بوسعها استغلاله .

---

* آرثر كونينغهام « مذكرات ضابط معاون خلال خدمته فى الصين » ، ريتشارد بنتلى ، لندن ، ١٨٥٣ ، ص ٩٨ .

٧ — النضالات الشعبية المعادية للغزاة البريطانيين في فوجيان وتشجيانغ وحوض اليانغتسى الادنى

حيثما اتجه الغزاة البريطانيون كانوا يلقون مقاومة مسلحة من الشعب الصيني . وقد ابدى اهالى فوجيان وتشجيانغ وحوض اليانغتسى الادنى ، كنظرائهم فى قوانغدونغ ، بطولة عظيمة فى مقاومتهم للعدوان .

ففى آب ١٨٤١ ، عندما هاجم الجنود البريطانيون شيامن واستولوا عليها ، وانتشروا يسلبون فى كل مكان ، قام قروى يدعى تشن بتنظيم قوة تربو على ٥٠٠ مقاتل لمقاومتهم . وهذا ما جعل الغزاة يشعرون بأنهم لن يستطيعوا الاحتفاظ بشيامن ، لذلك انسحبوا الى جزيرة قولانغيوى .

وعندما هاجم البريطانيون تشنهاى فى مقاطعة تشجيانغ ، نظم الاهالى هناك تلقائيا قوة حصارية لحماية الساحل . وصدوا سفينة استطلاع معادية ، وجرحوا واسروا نائب قبطانها مع عدد من رجاله كانوا قد تجرأوا على النزول الى اليابسة وتوغلوا من اجل السلب .

وعقب احتلال البريطانيين لتشنهاى ونينغبوه قام شيوى باو وتشانغ تاى هوه وشنغ دا تساى بتشكيل " حزب الماء الاسود " لاعاقة العدو . وقد اخفى اعضاؤه انفسهم داخل وخارج مدينة نينغبوه استعدادا لشن

هجومات ليلية مباغتة على العدو بعدد من القوارب السريعة الثمانية المجاذيف ، مما خلق جوا متوترا بين الغزاة ليلا . وهذه لم تكن الا قوة واحدة من القوات الشعبية الكثيرة الشهيرة ، لأن الناس فى كل مناطق تشنهاى ونينغبوه قد تسلحوا من تلقاء انفسهم من اجل النضال . وقد سببت هذه المقاومة الشعبية التلقائية فى تشجيانغ صعوبات كبيرة للغزاة وفقا لما كشفته تسجيلاتهم الخاصة . ففى ١٨ شباط ١٨٤٢ جنحت بسبب انحسار المد سفينة نقل بريطانية كانت راسية على الشاطئ للتزود بالماء ، فأسر الأهالى قبطانها وعاقبوه . وقد اسر الاهالى ، وفقا لما اعترف به الغزاة ، ٤٢ من رجالهم بطرق مختلفة ، وذلك فى الفترة الاخيرة من احتلالهم لنينغبوه .

وعندما بدأ البريطانيون زحفهم على امتداد اليانغتسى شرع الاهالى الذين يعيشون على ضفتيه يشنون نضالا مشابها ضدهم .

احتل البريطانيون ووسونغ وباوشان وشانغهاى ، وحاولوا التقدم على طول نهر سوتشو لاحتلال مدينة سوتشو . واجبروا صيادا يدعى وانغ تساى كون على العمل مرشدا لسفنهم الثلاث . فجرهم بكل مهارة الى داخل المياه الضحلة حيث ارتطموا بالارض على الرغم من ان بحوزتهم قاربا مسطحا من الاسفل ، وهذا ما اجبرهم اخيرا على التخلى عن خطتهم بخصوص مهاجمة سوتشو .

وفى فترة سقوط تشنجيانغ استخدم الاهالى الذين يقطنون حوض اليانغتسى الادنى ارماثا نارية وقوارب نارية فى الليل مستغلين هبوب الريح

المؤاتية ، وذلك لوقف زحف الاسطول البريطاني . وفي ١٩ تموز ١٨٤٢ (قبل ان تهاجم القوات البريطانية المدينة بيومين) اصدرت قيادة القوات البحرية والبرية البريطانية بيانا تهديديا مشتركا يحظر استخدام هذه الاسلحة النارية . وهذا دليل على خوفهم الشديد من هجومات شعبية كهذه .

وقام صانعو الملح الذين كانوا يقطنون القوارب على طول الضفة الشمالية لنهر اليانغتسي في قواتشو وييتشنغ بتشكيل قوة مقاومة هامة من تلقاء انفسهم . وقبل انتهاك البريطانيين لحوض اليانغتسي اقترح بعض ملاك الاراضي المؤيدين للمقاومة على حكومة تشينغ تجنيد صانعي الملح هؤلاء وتهيئتهم للقتال ضد الغزاة . وظنوا ان هذا يعزز مواقع الدفاع على اليانغتسي ويضع صانعي الملح في الوقت نفسه تحت السيطرة ، فلا ينتهزون الفرصة للايقاع بحكم طبقة ملاك الاراضي . ولكن حكام اسرة تشينغ كانوا على عداء شديد مع صانعي الملح . فبعد الغزو البريطاني لحوض اليانغتسي نبهوا مرارا الى وجوب الحذر منهم ، واتهموهم بامكان التعامل مع العدو وتعريض سلطة تشينغ للخطر . ولكن في الحقيقة ما كاد البريطانيون يقتربون من تشنجيانغ حتى هب صانعو الملح بمجملهم لمقاومتهم ، وهذا ما دحض افتراءات طبقة ملاك الاراضي . غير ان الطبقة الحاكمة اعتبرت ان مقاومتهم التلقائية بحد ذاتها خطر . وفي ١٨ تموز (قبل هجوم القوات البريطانية على مدينة تشنجيانغ بثلاثة ايام) قام خائن يدعى يان تشونغ لي ، وكان تاجر ملح

كبيرا فى يبتشنغ ، باستلام كمية كبيرة من " الهدايا" على متن سفينة حربية بريطانية كانت راسية فى النهر بالقرب من بلدته . وعرض بدون خجل ان يعطيهم ٥٠٠ الف دولار فضى مقابل انسحابهم من مدينة يانغتشو . وأبلغهم ايضا ان صانعى الملح قوة معادية للبريطانيين وغير خاضعة لحكومة تشينغ . وعلى ضوء هذه المعلومات شنت القوات البريطانية هجوما ليليا مفاجئا قاذفة حى صانعى الملح السكنى فى لاوخينغ بالقنابل . واشعلت السنة اللهب السماء جالبة الكارثة على عدة آلاف من صانعى الملح . وكانت هذه جريمة دامية ارتكبها الرجعيون المحليون والاجانب الذين تواطأوا على ذبح الشعب الصينى .

وسلك الاهالى فى تشنجيانغ تكتيك الهجوم الليلى لمواصلة مضايقة الغزاة البريطانيين . وقد كتب احد الضباط البريطانيين فى مذكراته عن احتلال تشنجيانغ يقول : " كنا خلال الليل نباغت باستمرار بفصائل من العدو صغيرة متقطعة تزحف على مخيمنا وتفتح عليه النار ، وهذا كان مصدر ازعاج للجنود لأنهم كانوا مضطرين للبقاء على استعداد دائم لمقاومة الهجوم ، فلم يستطيعوا الحصول على ادنى قسط من الراحة". *
ان ما اشار اليه هذا الضابط بكلمة " العدو " فى هذه الفقرة المقتبسة لم يكن فى الحقيقة " فصائل صغيرة متقطعة " من الجنود الصينيين ؛

---

* آرثر كونينغهام « مذكرات ضابط معاون خلال خدمته فى الصين » ريتشارد بنتلي ، لندن ، ١٨٥٣ ، ص ١٠٠ .

بل كان هذا العدو هم الاهالى الذين احسوا بكراهية شديدة ازاء الغزاة فهبوا يقاومونهم من تلقاء انفسهم . ولكنه صدق كل الصدق فى قوله بأن هذه المقاومة الشعبية قد ازعجت الغزاة البريطانيين اكبر ازعاج .

لقد نظم اهالى جينغجيانغ شمال اليانغتسى انفسهم لمعاقبة الغزاة البغيضين الذين كانوا يرتكبون كل انواع الشرور معاقبة بالغة القسوة . ففى ١٤ آب ، عندما اتجه بعض الغزاة نحو المدينة للاغارة واغتصاب المؤن ، صرخ الاهالى : " الشياطين الاجانب قادمون ! " وقاوموا هؤلاء المعتدين مستخدمين فى صدهم الحجارة التى راحوا يقذفونهم بها من على سور المدينة ، وقتلوا منهم من دخل المدينة للاستطلاع ، وقام الاهالى الذين يسكنون خارج المدينة بمهاجمتهم ايضا ، مما اضطرهم الى الفرار ذعرا .

وفى تلك الليلة نفسها نظم اهالى جينغجيانغ وجنود الحامية قوة دفاعية تتألف من الف رجل تقريبا استعدادا للرد الانتقامى الذى سيقوم به العدو ، وصنعوا من البامبو اسلحة على شكل مسامير حادة ، واصلحوا بنادقهم ، واستخرجوا المدافع التى كانت قد دفنت على طول ضفتى النهر بأمر من نيو جيان الذى طلب سحب جميع قطع المدفعية بعد ان اقتحم البريطانيون اليانغتسى . وكمنوا على طول شط النهر لمهاجمة العدو . وفى اليوم التالى وصلت ، كما كان متوقعا ، ثلاثة قوارب بريطانية فى مهمة انتقامية . فهب اهل المدينة كلها وصدوا هذه القوارب بكل شجاعة . ولم يعد الغزاة يجرؤون على مهاجمة جينغجيانغ .

وعلى كلتا الضفتين الشمالية والجنوبية لحوض اليانغتسى الادنى تطورت حركة المقاومة الشعبية التلقائية تطورا واسعا وسريعا . فقد بعث لينتشينغ ، المدير العام لمصلحة شؤون النهر ، بمذكرة الى العرش اشار فيها الى ان هناك قوات تطوعية فى الولايات المتناثرة على طول اليانغتسى وفى النواحى الممتدة على طول القناة الكبرى فى جيانغسو الشمالية تزيد عن ٩٠ الف رجل وان هذه القوات تمول بتبرعات من ابناء الطبقة العليا ومن الشعب ، وان كثيرا من الاهالى قد قدموا ايضا النحاس والحديد لصنع المدافع . وفى تلك الاثناء جند اكثر من ١٧٠٠ رجل قوى البنية فى جيش سوتشو عاصمة المقاطعة . وما بين حزيران وآب ١٨٤٢ تزايدت القوات الشعبية مع تزايد تغلغل العدو حتى انها وصلت الى اكثر من ١٠٠ الف رجل على طول ضفتى حوض اليانغتسى الادنى . وهذا اشار الى التطور السريع فى حركة المقاومة الشعبية ..

ان هذا النضال الهائل الذى خاضه الشعب الصينى ضد الغزاة قد اظهر بكل وضوح روحهم الباسلة وتصميمهم على الصمود فى وجه الامبريالية او كلابها .

٨ — معاهدة نانجينغ

لقد مالت زمرة تشينغ الحاكمة الى الاستسلام بعد هزيمتها فى تشجيانغ . فعندما سقطت تشنجيانغ فى ايدى الغزاة البريطانيين اصبحت هذه الزمرة اكثر الحاحا على طلب السلام ، وذلك لسببين : اولهما ، خوفها الشديد بعد غزو البريطانيين لحوض اليانغتسى الادنى ، الذى قطع الاتصالات ما بين الشمال والجنوب . وثانيهما ، عدم قدرتها على استبقاء القوات الضرورية للقضاء على الثورة الشعبية الوشيكة الوقوع ما لم تنه الحرب ضد العدو الخارجى بسرعة ..

وفى ٦ آب ١٨٤٢ وصل بسرعة الى نانجينغ ما بين ٧٠ و ٨٠ سفينة حربية بريطانية ، واحدة تلو الاخرى . فحاول نيو جيان ان يفاوض على الاستسلام ، ولكن المبعوث السياسى البريطانى هنرى بوتنجر رفض التحدث معه قائلا ان نيو ليس مبعوثا مطلق الصلاحية وليست لديه سلطة تخوله التفاوض ، وهدد كذلك بفتح النار على نانجينغ اذا لم ترسل حكومة تشينغ مبعوثا سياسيا مطلق الصلاحية من اجل التفاوض فورا . فاستبد الرعب بنيو جيان وارسل على الفور تقريرا مستعجلا الى المندوب الامبراطورى تشيينغ الذى كان حينذاك فى ووشى ، يستحثه

على القدوم الى نانجينغ حالا . وفى ١٠ آب اعلن الغزاة البريطانيون ثانية انه اذا لم يقدم مبعوث حكومة تشينغ السياسى اوراق اعتماده قبل فجر اليوم التالى فسيقذفون المدينة صباحا بالقنابل . فسارع ييليبو ونيو جيان الى ابلاغ البريطانيين بأن المندوب الامبراطورى تشيينغ سيصل حالا جالبا معه المرسوم الامبراطورى " باقامة علاقة ودية دائمة " . واطلع البريطانيون ايضا على مرسوم الامبراطور داو قوانغ الخطى الذى يلتمس فيه السلام . وتعمد الغزاة الحديث عن مهاجمة المدينة بقصد تخويف المستسلمين من امثال تشيينغ ونيو جيان وييليبو لارغامهم على استجابة تامة وسريعة وغير مشروطة لجميع مطالبهم . وربما بدا البريطانيون مرعبين ، ولكنهم كانوا فى الحقيقة ضعفاء تماما . فوباء الكوليرا قد حصد كثيرا من افراد قواتهم الصغيرة التى يتراوح عددها من ٧ الى ٨ آلاف جندى ، واكثر من ذلك ما يزالون مرضى . ولقد قدر الغزاة ان ٣٤٠٠ جندى فقط من قواتهم صالحون للقتال ، فى حين ان جنود اسرة تشينغ الذين يدافعون عن نانجينغ كانوا يعدون ٨ آلاف مقاتل . ولقد كان باستطاعة هؤلاء المدافعين ان يقوموا بمقاومة صلبة لو انهم صمموا على ذلك .

وبعد ان رأى البريطانيون ان تهديداتهم قد حققت نتائج مرضية غيروا موقفهم . وقالوا ان بريطانيا لا تريد اكثر من الاتجار مع الصين ، لذلك ليس هناك داع لمهاجمة البلاد ، اما الحرب التى كانت مستمرة فمسألة خارج نطاق سيطرتها ، وطالما ان هناك مندوبين امبراطوريين

مخولين باتخاذ القرارات فهم بدورهم مستعدون كذلك وراغبون فى التفاوض .

وفى اليوم التالى ١١ آب حاول تشيينغ حال وصوله الى نانجينغ الاتصال بالعدو للتحدث فى شروط الاستسلام . وامعانا فى تخويف تشيينغ وييليبو ونيو حيان لانتزاع موافقتهم التامة على المطالب البريطانية دعاهم بوتنجر فى ٢٠ آب الى بارجة الاميرال ليريهم المدفعية البريطانية ، وقد نجحت هذه المناورة لأن تشيينغ بعث فيما بعد تقريرا الى الامبراطور داو قوانغ يخبره فيه ان السفن الاجنبية قوية وكذلك مدافعهم . وقال ان ما عرفه سابقا كان مجرد سماع اما الآن فقد رأى بأم عينيه وانه قد اقتنع بناء على ذلك بأن البريطانيين لايمكن اخضاعهم بالقوة . وهذا يكشف تماما جبن موظفى اسرة تشينغ امام مدافع العدو .

وفى رأى طبقة تشينغ الحاكمة ان الغزاة على وضع تهديدى مرعب بحيث ان المخرج الوحيد هو الاستسلام بدون شروط . وفى ٢٢ آب اصدر الامبراطور داو قوانغ ، قطب طبقة تشينغ الحاكمة ، مرسوما خطيا بقبول جميع مطالب البريطانيين . ففى ٢٩ منه ذهب تشيينغ وييليبو ونيو جيان الى السفينة الحربية البريطانية كورنوولز ووقعوا على سطحها « معاهدة نانجينغ » (وتسمى « معاهدة جيانغنينغ » ايضا) ، اول معاهدة غير متكافئة فى تاريخ الصين الحديثة ، متخلين بذلك عن حقوق الامة الصينية .

وعلى الرغم من توقيع هذه المعاهدة ، ظلت كثير من المسائل

الهامة ، كتعرفة الرسوم الجمركية والسلطة القضائية القنصلية والمعاملة بالافضلية من جانب واحد ، من غير حسم نهائى . لذلك استأنفت المفاوضات الصينية البريطانية فى قوانغدونغ . وفى ٢٢ تموز ١٨٤٣ نشرت « القوانين العامة للتجارة الصينية البريطانية فى الموانئ الخمسة ، ميناء قوانغتشو وشيامن وفوتشو ونينغبوه وشانغهاى » واصبحت سارية المفعول ، وتلا ذلك توقيع « معاهدة هومن » فى ٨ تشرين الاول . وجاءت هاتان الوثيقتان مكملتين لـ « معاهدة نانجينغ » .

وبموجب « معاهدة نانجينغ » والمعاهدتين المكملتين لها حصل البريطانيون على الحقوق والامتيازات الرئيسية التالية :

١) الاحتلال القسرى لهونغ كونغ . فى وقت مبكر يعود الى عام ١٨٣٠ ارسل ٤٧ تاجرا بريطانيا فى الصين رسالة الى البرلمان فى لندن يطلبون فيها من الحكومة البريطانية ان تحتل جزيرة على طول الساحل الصينى " لحماية " التجارة البريطانية (والحقيقة تجارة الافيون) . وكان وليم جون نابير اول من اقترح الاستيلاء على هونغ كونغ ، ظنا منه ان هذه الجزيرة يمكن ان تتحول الى ميناء تجارى وقاعدة بحرية للتغلغل فى الصين . واخيرا تحقق هذا المخطط المشؤوم بتوقيع تشارلز اليوت وتشيشان لمسودة « اتفاقية تشوانبى » عام ١٨٤١ . وبعد ستة ايام من ذلك احتل الغزاة البريطانيون هونغ كونغ عنوة . وفيما بعد تنكرت الحكومة البريطانية لوثيقة تشوانبى لكونها غير مرضية ، ولكن الغزاة البريطانيين لم يعيدوا للصين هونغ كونغ ، وكان احتلالهم للجزيرة قد ورد بندا

رئيسيا فى « معاهدة نانجينغ » .

٢) ابتزاز تعويضات كبيرة جدا . لقد اشترطت « معاهدة نانجينغ » ان تدفع الصين لبريطانيا ٦ ملايين دولار فضى تعويضا عن مصادرة الافيون البريطانى و١٢ مليون عن نفقات الحرب و٣ ملايين " ديونا مستحقة للرعايا البريطانيين " على بعض تجار الهانغ . وهذا المبلغ الضخم الذى وصل الى ٢١ مليون دولار فضى (باستثناء ٦ ملايين فدية عن قوانغتشو) ابتزته بريطانيا من الشعب الصينى ابتزازا شنيعا .

٣) فتح الموانئ الخمسة . كان ميناء قوانغتشو هو الميناء الوحيد الذى خصصته حكومة تشينغ للتجارة الاجنبية . فألحت البرجوازية البريطانية العدوانية على فتح مزيد من الموانئ الصينية . وفى عام ١٨٣٢ ارسلت بريطانيا سفينة تجسسية تدعى اللورد امهيرست لتستطلع الساحل الصينى وتجمع معلومات سياسية واقتصادية وعسكرية بخصوص شيامن وفوتشو ونينغبوه وشانغهاى ، مع الاهتمام الخاص بمياه هذه الموانئ . وكانت هذه الموانئ الاربعة هى نفسها التى فتحت لأول مرة بموجب « معاهدة نانجينغ » ، وتلك حقيقة توضح ان الغزاة البريطانيين قد خططوا لهذا الغرض منذ زمن طويل . لقد كانت قوانغتشو منفذهم التجارى الاصلى ، وكانت شانغهاى المدخل الرئيسى لحوض اليانغتسى ، اما الموانئ الثلاثة الاخرى فهى التى تتحكم بمنافذ البحر فى مقاطعتى فوجيان وتشجيانغ . ففتح هذه الموانئ الخمسة قد ادى فعلا الى فتح الابواب عنوة الى جميع المقاطعات الساحلية فى جنوب شرقى الصين .

ومع الاتفاق على قرار تعرفة الرسوم الجمركية بدأت بضائع البلدان الرأسمالية تتدفق من هذه الموانئ على الصين تدفق السيول الجارفة ، ناسفة بالتدريج اسس الاقتصاد الصينى الاصلية ومتحولة به الى طريق من التطور شبه مستعمر . هذا وقد سمحت « معاهدة نانجينغ » للتجار البريطانيين ان يقيموا مع اسرهم فى الموانئ الخمسة ، كما سمحت لهم « معاهدة هومن » باستئجار الاراضى وبناء المنازل للاقامة الدائمة هناك . وفيما بعد تعمد الغزاة الاجانب تحريف معنى شروط المعاهدة المتعلقة بهذا الموضوع ، منتهزين جميع الفرص الممكنة لرسم حدود للمناطق فى الموانئ التجارية ووضع هذه المناطق تحت ادارتهم المباشرة . وهذه ما دعيت بـ " منطقة الامتيازات الاجنبية " التى فرضوا عليها نظام سيطرة استعماريا مستقلا تمام الاستقلال عن نظام الصين الادارى والقانونى . واتخذ الغزاة الاجانب هذه المناطق مواقع اساسية يشددون منها سيطرتهم على الصين سياسيا واقتصاديا .

٤) اتفاقية تعرفة الرسوم الجمركية . لقد نصت المادة العاشرة من « معاهدة نانجينغ » على ان " تعرفة مناسبة منتظمة لرسوم التصدير والاستيراد والرسوم الاخرى " على البضائع البريطانية سوف تحدد باتفاق متبادل . وهذا يعنى ان الصين لم يكن لها حق فى تحديد تعرفتها الخاصة ، بل اجبرت على موافقة البريطانيين . وبموجب « القوانين العامة للتجارة الصينية البريطانية فى الموانئ الخمسة » ثبت معدل التعرفة على معظم السلع الهامة بمعدل ٥٪ من قيمتها ، واصبحت تعرفة الرسوم

الجمركية ثابتة عمليا عند هذا المعدل . وهكذا فقدت الصين تماما حقها فى تقرير تعرفتها ، ولم تعد الجمارك الصينية قادرة على حماية الانتاج الصناعى والزراعى المحلى . وتمكن الاجانب من ان يبيعوا الصين كميات كبيرة من البضائع ، فحولوها بذلك الى سوق لمنتجاتهم الصناعية وجعلوا زراعتها تخدم احتياجاتهم الخاصة . وظلت الامبريالية التى سيطرت على جمارك الصين مدة قرن او ما يقارب ذلك تمتص دماء الشعب الصينى كأشرس ما تكون الذئاب .

٥) السلطة القضائية القنصلية . لقد اشترطت المادة ١٣ من « القوانين العامة للتجارة الصينية البريطانية فى الموانئ الخمسة » ، فيما يتعلق بالنزاعات بين الصينيين والرعايا البريطانيين ، ان تسن الحكومة البريطانية بخصوص معاقبة المجرمين البريطانيين قوانين ضرورية لتحقيق تلك الغاية ، والقنصل البريطانى المسؤول عن ذلك سيخول صلاحية تنفيذ هذه القوانين . وبتعبير آخر فان الموظفين الصينيين لا يملكون سلطة معاقبة اى من الرعايا البريطانيين الذين يرتكبون جريمة فى الصين وفقا للقانون الصينى ، بل ان القنصل البريطانى هو الذى يعاقب هذا المجرم وفقا للقانون البريطانى . وكان هذا انتهاكا خطيرا لسلطة الصين القضائية . وبالاستفادة من هذا الامتياز فى الصين ارتكبت الامبريالية اعمالا جائرة لا يحصى عددها ضد الشعب الصينى على امتداد قرن من الزمان او ما يقارب ذلك .

٦) المعاملة بالافضلية من جانب واحد . فى ايار ١٨٤١ ذكر

بالميرستون بكل وضوح فى وصاياه لبوتنجر مسألة كسب امتياز المعاملة بالافضلية من جانب واحد فى الصين . لقد اشترطت « معاهدة هومن » : انه اذا " قدمت الصين امتيازات اضافية او استثناءات لأى من رعايا او مواطنى . . . البلدان الاجنبية (الاخرى) ، فيجب ان تمنح هذه الامتيازات والاستثناءات نفسها للرعايا البريطانيين ليتمتعوا بها " . وكان هذا انتهاكا خطيرا لسيادة الصين من نوع خاص . وقد تضمنت المعاهدات الصينية ــ الامريكية والصينية ــ الفرنسية اللاحقة شروطا مشابهة للشروط السابقة . وهكذا ، اذا حصل اى بلد آخر على حقوق وامتيازات جديدة من الصين فان بريطانيا ستحصل على ذلك ايضا ، والعكس بالعكس . وبذلك اصبحت الدول الاجنبية المتعددة شريكات فى عدوانها على الصين .

كان ما سبق ذكره هو المحتويات الرئيسية لـ « معاهدة نانجينغ» والمعاهدتين المكملتين . ومن الجدير بالاهتمام انه لم تذكر فى المعاهدات ولو كلمة واحدة حول الافيون باعتباره السبب المباشر للحرب . ولقد كتب احد الغزاة البريطانيين فى مذكراته اليومية فى ذلك الوقت ان بوتنجر قد نصح حكومة تشينغ ، خلال مأدبة اقامها تشيينغ على شرفه فى ٢٦ آب ١٨٤٢ قبل ثلاثة ايام من توقيع المعاهدة ، بتحليل تجارة الافيون ، قائلا لتشيينغ بأسلوب مغر انه اذا تم استيراد الافيون بحرية واصبحت الضريبة عليه مطلقة فان التهريب سيتناقص والدخل الحكومى سيزداد ــ وهذا ربح مزدوج . وبدلا من ان يدحض تشيينغ

وزملاؤه هذه السخافة اعتبروها كلاما صحيحا . وقبل توقيع « معاهدة هومن » قام بوتنجر بارسال جون روبرت موريسون الى الموظفين الصينيين لمطالبتهم برفع الحظر عن الافيون مع تقديم مذكرة تعليلا لذلك : كانت الصين قد حظرت تجارة الافيون سابقا الا ان هذه التجارة قد استمرت فى البحر بين التجار الصينيين والبريطانيين ، لذلك لم يكن الحظر الا اسميا ، فمن الافضل تحليل هذه التجارة وزيادة دخل الصين . ولما ناقش الموظفون الصينيون ذلك رأوا ان من غير الضرورى ان تتضمن المعاهدة تحليل تجارة الافيون ، لأنهم كانوا فى الحقيقة قد اكدوا لبوتنجر قبل ذلك بوقت بعيد ان الصين لن تستجوب اى سفينة تجارية اجنبية او تسلك ضدها سلوكا معاديا سواء أكانت تحمل افيونا ام لا . وبهذا التفاهم بين المعتدين البريطانيين وحكومة تشينغ ازدهرت تجارة الافيون اكثر مما كانت عليه قبل الحرب . وقد اشار كارل ماركس عام ١٨٥٨ الى ان تهريب الافيون قد ازداد بدلا من ان يتناقص بعد : " الحرب الانكليزية — الصينية الاولى التى تكشفت نتائجها عن الثورة الصينية والاستنزاف التام للخزينة الامبراطورية والانتهاك الروسى الناجح من الشمال والمبالغ الهائلة التى ابتزتها تجارة الافيون فى الجنوب . " * .

---

* كارل ماركس : « تجارة الافيون » ، « مؤلفات ماركس وانجلز المختارة » ، المجلد الثانى .

كانت « معاهدة نانجينغ » اول معاهدة غير متكافئة فرضها المعتدون البريطانيون على الصين واول قيد وضعه الغزاة الاجانب فى يد الشعب الصينى . وقد سجلت هذه المعاهدة بداية تداعى سيادة الصين وافتتاح اسواقها عنوة وانتقالها من مجتمع اقطاعى مستقل الى مجتمع شبه مستعمر وشبه اقطاعى . ومنذ ذلك الوقت كانت الامبريالية والاقطاعية تشددان بالتعاون فيما بينهما استعبادهما واستغلالهما للشعب الصينى ، فى حين شن هذا الشعب العظيم نضالا باسلا طويلا ضد اعدائه المحليين والاجانب .

٩ — الغزاة الامريكيون والفرنسيون يحذون حذو الغزاة البريطانيين

لقد فتح العدوان البريطاني على الصين الطريق امام برجوازية البلدان الاخرى ، ومن بينها الولايات المتحدة وفرنسا ، لابتزاز الصين .

فقبل حرب الافيون كانت الولايات المتحدة الثانية بعد بريطانيا في اتجارها مع الصين وفي كمية الافيون التي هربتها الى داخلها ، الا انها كانت اكثر من بريطانيا مكرا في وسائلها . وكانت البرجوازية الامريكية على انسجام تام مع البريطانيين في فتحهم الصين واستغلالهم شعبها ، وعملت شريكة لهم خلال حرب الافيون .

وقد تحالف مهربو الافيون الامريكيون مع نظرائهم البريطانيين لتخريب الحركة الصينية ضد الافيون التي بدأت عام ١٨٣٨ . فعندما كان البريطانيون يستعدون لشن الحرب العدوانية عام ١٨٣٩ ارسل التجار الامريكيون في قوانغتشو رسالة الى الكونغرس في واشنطن في ايار من ذلك العام يطلبون فيها من حكومتهم ان تشرع في عمل ما وتشترك مع بريطانيا وفرنسا وهولندا في اجبار حكومة تشينغ على قبول مطالبة هذه الدول العدوانية بالسماح للأجانب بحرية التجارة في اي

ميناء من موانئ الصين .

ولقد شدت هذه الرسالة التى وصلت الكونغرس فى كانون الثانى ١٨٤٠ اهتمام الحكومة الكبير ، الا ان البرجوازية الامريكية لم ترغب فى المشاركة المباشرة فى الحرب البريطانية معتقدة ان الاصطياد فى المياه العكرة سيحقق لها فوائد اكثر . ولذلك ارسلت الحكومة الامريكية خلال حرب الافيون اسطولها ، اسطول الهند الشرقية ، الى الصين بأمرة القائد البحرى لورانس كيرنى لدعم البريطانيين . ولقد دافع الرئيس الامريكى السابق جون كونسى آدمز فى خطاب له عام ١٨٤١ عن البريطانيين فى حربهم العدوانية قائلا انهم كانوا محقين تماما فى اعلانها . كما ان المبشر الامريكى ج . ل . نفيوز الذى عمل فى الصين مدة طويلة تبجح بأن حرب الافيون قد افتتحت ، صوابا او خطأ ، وفقا لمشيئة الله ، عهدا جديدا فى علاقة الولايات المتحدة مع امبراطورية تشينغ الواسعة . لقد تعاونت الولايات المتحدة مع بريطانيا تعاونا تاما فى شن العدوان على الصين .

ومع عقد « معاهدة نانجينغ » نظرت البرجوازية الامريكية بعين الحسد الى الامتيازات الكثيرة التى انتزعتها بريطانيا من الصين ، وقررت ان تبتز حكومة تشينغ بالتهديد مستفيدة من ضعفها الذى تلا الحرب .

وفى كانون الاول ١٨٤٢ اقترح الرئيس الامريكى تايلر فى رسالة له الى الكونغرس ارسال بعثة الى الصين لتتولى امر العناية بالشؤون الدبلوماسية والتجارية . فوافق الكونغرس فورا وخصص ٤٠ الف دولار

امريكى للنشاطات العدوانية على الصين . وفى ايار ١٨٤٣ ارسلت الحكومة الامريكية الى الصين كالب كوشينغ ، عضو جمعية الشؤون الاجنبية فى مجلس العموم ، مندوبا لها ومبعوثا فوق العادة ، ومعه ف. وبستر ابن وزير الخارجية الامريكية دانيال وبستر بصفته سكرتيرا له. وابحرا الى الصين بثلاث سفن حربية فى تموز ١٨٤٣ . وصرحت الحكومة الامريكية فى تعليماتها لكوشينغ بأن الولايات المتحدة يجب ان تحصل على الشروط التجارية نفسها التى حصلت عليها بريطانيا فى موانئ الصين التى فتحت حديثا ، والا فلن يكون بمقدورها العيش بسلام مع الصين .

وصل كوشينغ بسفنه الحربية الى ماكاو فى شباط ١٨٤٤ . وطلب اول الامر من حكومة تشينغ ان تسمح له بمواصلة تقدمه الى بكين لاجراء مقابلة مع الامبراطور . وبعد ذلك صرح انه لن يتفاوض مع اى موظف ما لم يكن مندوبا للامبراطور ولن يعترف بتشنغ يوى تساى ، نائب الامبراطور على مقاطعتى قوانغدونغ وقوانغشى ، نظيرا له فى المفاوضات . ولم تكن حكومة تشينغ حينذاك مستعدة لعقد معاهدة غير متكافئة مع الولايات المتحدة كمعاهدة نانجينغ ، اما تشنغ فرفض مطالب كوشينغ العدوانية المستبدة اكثر من مرة رفضا مؤدبا . ولما خاب امل كوشينغ بتحقيق مؤامرته لجأ الى التهديد بالحرب . وفى رسالة بعثها الى تشنغ فى ٢٤ نيسان كشف عن وجهه الحقيقى مهددا بأن الرفض المستمر لمطالبه سيعتبر نشاطا معاديا للولايات المتحدة .

وفى ٩ ايار كتب مرة اخرى الى تشنغ ، ممعنا فى تهديده : انه ليس اسطول امريكي واحد فى طريقه الى الصين مارا برأس الرجاء الصالح فحسب ، بل ان السفن المدفعية التابعة للاسطول الامريكى فى المحيط الهادئ قد امرت ايضا بالقدوم الى الصين .

ولما عجزت حكومة تشينغ عن الصمود امام تهديدات كوشينغ ارسلت المندوب الامبراطورى الخائن تشيينغ الى قوانغدونغ للتفاوض معه . فوصل وانغشيا قرية قرب ماكاو ، فى ١٧ حزيران . وفى اثناء المفاوضات طلب كوشينغ من تشيينغ ان يقبل بالمعاهدة التى كان قد وضع مسودتها ، شرطا لعدم ذهابه الى بكين . وفى ٣ تموز وافق تشيينغ ووقعت « معاهدة وانغشيا » ، اول معاهدة غير متكافئة ينتزعها العدوان الامريكى على الصين .

وعادت « معاهدة وانغشيا » على الغزاة الامريكيين بمنافع عظيمة فى مجال التجارة وفوائد اخرى لأنهم استطاعوا من خلالها ان يحصلوا بطريق الخداع ، باسم " الفرصة المماثلة " ، على الامتيازات التى حصلت عليها بريطانيا من « معاهدة نانجينغ » والمعاهدتين المكملتين لها ، وحصلوا ايضا على الامتيازات الاضافية التى لم تكن قد صيغت بوضوح فى تلك الوثائق .

١) فقرة خاصة بالسلطة القضائية القنصلية . فى حالة نزاع بين مواطن امريكى وصينى فان الاول يحاكم من قبل القنصل الامريكى وفقا لـ « معاهدة وانغشيا » ؛ وفى اية خصومة تقع فى الصين ، بين مواطن

امريكى وآخر اجنبى ، لا يحق للموظفين الصينيين ان يتدخلوا . وهكذا اضعفت سلطة الصين القضائية الى حد كبير .

٢) فقرة انتهاك استقلالية تعرفة الصين . وفيما يتعلق بتعرفة الرسوم الجمركية فان « معاهدة نانجينغ » قد اشترطت فقط ان تؤسس بالاتفاق المتبادل " تعرفة مناسبة منتظمة لرسوم التصدير والاستيراد والرسوم الاخرى " ، بينما ذهبت « معاهدة وانغشيا » خطوة ابعد من ذلك حين قررت : " اذا رغبت الحكومة الصينية فى تعديل اى شيء بخصوص التعرفة المذكورة آنفا فان تعديلات كهذه يجب الا تتم الا بالتشاور مع القناصل او الموظفين المخولين تماما بالتحدث باسم الولايات المتحدة ، وبموافقة الولايات المتحدة " . وهكذا انتهك المعتدون الامريكيون استقلالية تعرفة الصين انتهاكا اوسع من انتهاك البريطانيين لها .

٣) فقرات انتهاك حرمة مياه الصين الاقليمية . لقد اقرت المادة ١٤ من « القوانين العامة للتجارة الصينية البريطانية فى الموانئ الخمسة » والمادة ١٠ من « معاهدة هومن » سابقة سيئة استطاعت السفن الحربية البريطانية من خلالها ان ترسو فى موانئ الصين التجارية . والمادة ٣٢ من « معاهدة وانغشيا » اشترطت ما يلى : " كلما وصلت السفن الحربية الامريكية التى تطوف فى البحر لحماية تجارة بلادها ، اى مناء فى الصين " ، يجب ان تستقبلها سلطات تشينغ المحلية وتخدمها . اما المادة ٢٦ فنصت على ما يلى : " ان المراكب التجارية الامريكية

الموجودة فى مياه موانئ الصين الخمسة المفتوحة للتجارة الاجنبية ستكون خاضعة قضائيا لسلطة موظفى حكومتها هى . . . لا لسيطرة الجانب الصينى" . وهكذا استطاعت السفن الاجنبية ان تدخل مياه الصين الاقليمية او تغادرها من غير ما عائق ، منتهكة حرمة سيادة الصين البحرية الى حد خطير .

وبموجب المادة ١٧ من « معاهدة وانغشيا » سمح للامريكيين فوق ذلك ان يبنوا كنائس خاصة بهم فى الموانئ الخمسة . وهذا كان سببا فى طلب فرنسا بأن ترفع حكومة تشينغ الحظر عن المذهب الكاثوليكى. والمادة الاخيرة من هذه المعاهدة والتى تنص على تعديل المعاهدة بعد ١٢ سنة تدع المجال مفتوحا امام ابتزاز السلطات الاجنبية فى المستقبل .

كانت « معاهدة وانغشيا » معاهدة غير متكافئة وذات شروط اقسى من شروط « معاهدة نانجينغ» ، وقد اصبحت فى الحال نموذجا لـ « معاهدة هوانغبو » الصينية — الفرنسية والمعاهدات التى عقدتها الصين مع البلدان الاخرى . وبعد توقيع « معاهدة وانغشيا » كتب كوشينغ بكل رضا الى وزارة الخارجية الامريكية انه ينبغى للولايات المتحدة والبلدان الاخرى ان تشكر بريطانيا على عقد « معاهدة نانجينغ» التى فتحت باب الصين ، ولكن على بريطانيا والبلدان الاخرى الآن ان تشكر كذلك الولايات المتحدة على فتحها هذا الباب على نحو اوسع . وهكذا اعترف بأن الولايات المتحدة قد سعت الى الاستفادة من الوضع المضطرب عندما تتبعت خطى بريطانيا .

وسارت فرنسا فى اثر الولايات المتحدة تماما .

فقبل حرب الافيون كانت التجارة الفرنسية مع الصين متخلفة كثيرا عن تجارة بريطانيا والولايات المتحدة . وعندما اندلعت الحرب اخذت البرجوازية الفرنسية تراقب تطورها بدقة ، آملة ان تحقق منها نفعا . ففى اوائل عام ١٨٤١ ارسلت الحكومة الفرنسية الى الصين الكولونيل ا . دى جانسيغنى لاستقصاء الوضع فى الشرق الاقصى والقيام بنشاطات عدوانية . وعندما غزت القوات البريطانية حوض اليانغتسى قامت سفينتان حربيتان فرنسيتان اريغون وفيفرت ، كانتا راسيتين فى ووسونغ ، باطلاق النار تحية للاسطول البريطانى الغازى ودخلتا اليانغتسى عنوة منتهكتين حرمة سيادة الصين . وعند توقيع « معاهدة نانجينغ » ذهب سيسيل قبطان السفينة الحربية اريغون الى البارجة البريطانية كورنوولز من غير ما دعوة ليحضر المراسم .

وبعد توقيع « معاهدة نانجينغ » رأت الحكومة الفرنسية الفرصة سانحة ، فأرسلت تيودوس م . م . ج . دى لاغرنيه مبعوثا سياسيا خاصا الى الصين مع ثمانى بوارج للتهديد .

كان لاغرنيه معروفا بأنه سياسى ماكر . فعندما وصل الى ماكاو فى آب ١٨٤٤ تعمد عدم الكشف عن نواياه الحقيقية قبل بدء المفاوضات ، وهذا ما دفع تشيينغ مندوب حكومة تشينغ الامبراطورى الى ارسال موظفين الى ماكاو للاستطلاع . وتعمد كذلك نشر شائعات مختلفة منها : انه يريد ان يصادق الصين ويساعدها فى مقاومة البريطانيين ؛

او انه يريد ان يحتل هومن ليسبب متاعب للصين ؛ او انه يطلب رفع الحظر عن المذهب الكاثوليكي ؛ او انه سيواصل تقدمه الى بكين لاجراء مقابلة مع الامبراطور . وحيرت هذه الروايات المضطربة تشيينغ الذى اجبر على اتخاذ وضعية سلبية منتظرا رؤية ما سيحدث . وعند افتتاح المفاوضات فى اوائل تشرين الاول درس لاغرنيه على نحو مفصل المعاهدتين الصينية ــ البريطانية والصينية ــ الامريكية وعرف احوال حكومة تشينغ . وعندما طلب عقد معاهدة تجارية كسابقتيها اللتين عقدتهما الصين مع بريطانيا والولايات المتحدة وافق تشيينغ على الفور . وفى ٢٤ تشرين الاول وقعت على متن سفينة حربية فرنسية فى هوانغبو « معاهدة هوانغبو » الصينية ــ الفرنسية (او القوانين العامة للتجارة الفرنسية فى الموانئ الخمسة الصينية ، ميناء قوانغتشو وشيامن وفوتشو ونينغبوه وشانغهاى) .

وبموجب هذه المعاهدة حصلت فرنسا بسهولة على الامتيازات العظيمة التى حصلت عليها سابقا بريطانيا والولايات المتحدة ، كالاتجار فى الموانئ الخمسة والتعرفة المتفق عليها وسلطة القضاء القنصلية والمعاملة بالافضلية من جانب واحد ، بالاضافة الى بعض الامتيازات الجديدة . وما يميز « معاهدة هوانغبو » عن غيرها هو انها اشترطت بالاضافة الى منح فرنسا الحق فى بناء كنائس ومقابر فى الموانئ الخمسة ، ان يعاقب موظفو حكومة تشينغ معاقبة شديدة اى شخص ينتهك حرمة تلك الاماكن . وهذه الفقرة التى تضع على كاهل حكومة تشينغ مسؤولية حماية الكنائس

الفرنسية والمبشرين ثبت فيما بعد اضرارها الشديد بالشعب الصينى . وتحت حمايتها اخذ الغزاة من مختلف البلدان ينفذون على نحو سافر نشاطاتهم العدوانية متخذين من الدين ذريعة لهم .

كان جشع الغزاة بلا حدود . فلاغرنيه الذى لم يكتف بالامتيازات الخاصة التى منحتها المعاهدة ، استخدم مسألة حظر المذهب الكاثوليكى الرومى ذريعة ليبتز من حكومة تشينغ مزيدا من الامتيازات .

لقد ظل المذهب الكاثوليكى مدة طويلة اداة لفرنسا فى سياستها الخارجية العدوانية . فالمبشران الكاثوليكيان الفرنسيان جان فرانسوا جيربيللون وجوشيم بوفيت المشهوران بين الصينيين الذين دانوا بأديان جديدة كانا قد ارسلا الى الصين من لدن الملك لويس الرابع عشر فى عهد الامبراطور كانغ شى (١٦٦٢ — ١٧٢٢) . ولكن الحظر الدينى الذى اعلنته حكومة تشينغ فى اوائل عام ١٧٢٤ ، والذى منع الصينيون بموجبه من ممارسة العقيدة الكاثوليكية كما منع المبشرون الاجانب من نشرها ، كان عائقا خطيرا فى طريق هذه السياسة . وقد ارسلت فرنسا املا منها فى خرق هذا الحظر مبشرين الى ماكاو قبل حرب الافيون ، حيث مكثوا فترات طويلة لدراسة اللغة الصينية والاوضاع الصينية . فتنكر المبشرون الكاثوليكيون على هيئة صينيين وتغلغلوا الى المقاطعات الداخلية باحثين بألف وسيلة ووسيلة عن طرق تجعل حكومة تشينغ تلغى الحظر . وبعد توقيع « معاهدة نانجينغ » رأت الحكومة الفرنسية الفرصة ملائمة للضغط على حكومة تشينغ بخصوص هذه المسألة ، وهذا كان

حقا احد اهداف لاغرنيه الرئيسية من مهمته التى جاء بها الى الصين . فعندما وصل الى ماكاو المح الى تشيينغ من خلال المبشر الفرنسى كاليرى المقيم هناك انه حتى اذا كان من الممكن تخليه عن المطالب الاخرى فسيصر على رفع الحظر .

وعلى الرغم من ان « معاهدة هوانغبو » قد منحت الفرنسيين امتياز بناء كنائس فى الموانئ الخمسة ، الا انهم سيظلون يواجهون صعوبة فى الاستفادة من هذه الكنائس لصالح سياستهم العدوانية اذا لم ترفع حكومة تشينغ الحظر عن المذهب الكاثوليكى الرومى . لذلك قرر لاغرنيه ان يتشدد فى هذا المطلب الى جانب ما كسبه من خلال المعاهدة . وتحت تأثير ضغطه وافق الامبراطور داو قوانغ اخيرا على رفع الحظر فى ١١ تشرين الثانى ١٨٤٤ اى بعد توقيع « معاهدة هوانغبو » بسبعة عشر يوما .

ولكن الامبراطور لم يصدر مرسوما بهذا الشأن ، لأنه وافق على مطلب الفرنسيين لتهدئة لاغرنيه ليس الا . وفى آب ١٨٤٥ صمم لاغرنيه على السعى حتى النهاية من اجل تحقيق هدفه ، مستفيدا من التصديق المتبادل على « معاهدة هوانغبو » ، فطلب اصدار بلاغ برفع الحظر . وبعد ذلك انطلق فى حملة استطلاع الى شانغهاى ونيغنبوه وشيامن ، وعاد الى ماكاو فى اوائل كانون الاول . وادعى ان رفع الحظر كان اسميا فى كل مكان اكثر منه حقيقة ، ثم ضغط مرة اخرى على حكومة تشينغ لكى تعلن ذلك رسميا والا فستصل الامور بين البلدين الى حد

من التأزم لا يمكن تصوره . وتحت وطأة هذا التهديد اصدر الامبراطور داو قوانغ فى شباط ١٨٤٦ مرسوما الى جميع موظفى المقاطعات رفع فيه الحظر عن المذهب الكاثوليكى الرومى . وهكذا حقق الفرنسيون الرضا التام من مطلبهم العدوانى .

لقد لعبت الامتيازات التى احرزتها فرنسا لمبشريها دورا سيئا فى تاريخ العدوان الامبريالى الحديث على الصين . فمنذ ذلك الحين بدأ المبشرون الاجانب يتدفقون على الصين من غير ما عائق ، مصطحبين معهم الافيون والبضائع والمدافع . فرشوا من جهة ما الخونة وجمعوا المعلومات الاستخبارية ونشروا معتقدهم الخرافى بغية اخماد الشعب ؛ وتعاونوا من جهة اخرى مع موظفى حكومة تشينغ على قمع الشعب والتنمر عليه وفعلوا كثيرا من المساوئ الاخرى . لقد كانوا فى طليعة التغلغل الاجنبى العدوانى الى الصين ، وجلبوا على الشعب الصينى كوارث خطيرة .

وهكذا تبع الغزاة الامريكيون والفرنسيون فى اعقاب توقيع « معاهدة نانجينغ » الغزاة البريطانيين فى القيام بغزوات الى الصين ، كما ان كثيرا من البلدان الاوربية ، كالبرتغال وبلجيكا والسويد والنرويج (المملكة الاتحادية حينذاك) ، طلبت ايضا على التوالى عقد معاهدات تجارية لكسب المنافع . اما حكام اسرة تشينغ المتفسخون فقد منحوا هذه الدول كافة الامتيازات المتكافئة وفقا لمبدأ " معاملة الجميع

على حد سواء" ، الامر الذى ادى الى فتح باب الصين بعد حرب الافيون ، ليس امام بريطانيا وحدها ، بل امام العالم الرأسمالى بكامله .

١٠ ـ ولادة مجتمع شبه مستعمر وشبه اقطاعى

كان لهزيمة الصين فى حرب الافيون ولعقد « معاهدة نانجينغ » عواقب وخيمة ، فمنذ ذلك الحين فقدت الصين استقلالها ، وطرأت على مجتمعها تغيرات ذات شأن خطير . وتحت تأثير الرأسمالية الاجنبية الشديد المتزايد بدأ اقتصاد الصين الطبيعى القائم على الاكتفاء الذاتى يتدهور بالتدريج ، فى حين افلست اعداد كبيرة من الفلاحين والحرفيين . واضيف الى التناقض بين الاقطاعية وجماهير الشعب ، وهو التناقض الرئيسى فى المجتمع الصينى ، التناقض الرئيسى الآخر ، التناقض بين الرأسمالية الاجنبية والامة الصينية . وخطوة فخطوة اصبحت الصين مجتمعا شبه مستعمر وشبه اقطاعى . وفى الوقت الذى تعمق فيه التناقض بين الامبريالية والامة الصينية والتناقض بين الاقطاعية وجماهير الشعب طرأ على العلاقات الطبقية والصراع الطبقى فى المجتمع الصينى تغير لم يسبق له مثيل .

ولقد اشار الرئيس ماو الى ذلك قائلا : " ان الرأسمالية الاجنبية قد لعبت دورا هاما فى انحلال الاقتصاد الاجتماعى فى الصين ، اذ نسفت ، من جهة ، اسس اقتصادها الطبيعى القائم على الاكتفاء

الذاتى ودمرت الصناعات اليدوية فى المدن والصناعات اليدوية المنزلية للفلاحين ؛ وعجلت ، من جهة اخرى ، فى نمو الاقتصاد السلعى فى مدن الصين وأريافها . " * ودور الرأسمالية الاجنبية فى انحلال الاقتصاد الاجتماعى فى الصين قد اصبح واضحا فى غضون سنوات قليلة بعد حرب الافيون . وعندما تدفقت السلع الرأسمالية ، وخاصة الاقمشة الاجنبية والغزل الاجنبى ، على السوق الصينى ، كانت صناعة الغزل والنسيج اليدوية فى المناطق المحيطة بالموانئ التجارية الخمسة — قوانغتشو وشيامن وفوتشو ونينغبوه وشانغهاى — اول صناعة عانت من ذلك . وبدأت هذه الصناعة فى سونغجيانغ وتايتسانغ واماكن اخرى بالقرب من شانغهاى ، وكذلك فى قوانغتشو وشيامن تنحط فى اواسط الاربعينات . ولكونها الاعمال الجانبية الرئيسية فى الريف الصينى وعنصرا هاما فى اقتصاد الصين الطبيعى القائم على الاكتفاء الذاتى ، فان انحطاطها كان مؤشرا لبداية انحلال اقتصاد الصين الاجتماعى الاصلى .

ولكنه دفع فى الوقت نفسه تطور اقتصاد الصين السلعى فى المدن والارياف ، وقد ظهر ذلك فى الارتفاع الحاد فى تصدير الحرير

---

* « الثورة الصينية والحزب الشيوعى الصينى » ، « مؤلفات ماو تسيتونغ المختارة » ، دار النشر باللغات الاجنبية ببكين ١٩٦٩ المجلد الثانى ، ص ٤٢٦ .

والشاى . ففى عام ١٨٥١ تم تصدير حوالى ٤٥ مليون كغ من الشاى ، وهذا ضعف المقدار الذى كان يصدر سنويا قبل حرب الافيون . ومع نهاية الاربعينات ارتفع تصدير الحرير من ١٢ الف رزمة قبل الحرب الى اكثر من ٢٠ الف رزمة . وهذا الحجم الكبير من الصادرات قد دفع انتاج هاتين المادتين . ولهذا فان صناعة لف الحرير فى جيانغسو وتشجيانغ وزراعة الشاى فى هونان قد توسعتا بسرعة . واقيمت المعامل فى شانغهاى لمعالجة الشاى من اجل تصديره . وكانت تجارة تصدير الحرير والشاى فى ذلك الوقت فى قبضة الاجانب ، وفى الدرجة الاولى البريطانيون ، الذين كانوا يحددون مقدار الصادرات واسعارها . وبهذه الطريقة بدأت الصين تتحول الى جزء من سوق العالم الرأسمالى .

وظل تهريب الافيون فى ذلك الوقت وسيلة هامة يسلب الغزاة الاجانب من خلالها الشعب الصينى . فقد ارتفع المعدل السنوى لاستيراد الافيون من ٣٧ الف صندوق فى الاربعينات الى ٧٠ الف صندوق تقريبا فى الخمسينات . وبلغ مجمل الافيون المستورد فى السنوات العشر التى تلت حرب الافيون ٧٠٠ الف او ٨٠٠ الف صندوق ، تراوحت قيمتها من ٣٠٠ الى ٤٠٠ مليون دولار فضى . واصبحت هونغ كونغ مركز تهريب الافيون ، وشانغهاى وقوانغتشو اكبر ميناءين لاستيراده . وتظهر حسابات عام ١٨٤٨ انه كان هناك ٣٥ سفينة لاستقبال الافيون فى الصين ، وهى التى كانت تدعى " الحصون العائمة " ، وذلك مقابل ٢٢ سفينة قبل حرب الافيون . وكانت ١٢ سفينة من بين هذه السفن

فى ووسونغ خارج شانغهاى . وفى عام ١٨٤٩ بلغت كميات الافيون الموجودة داخل سفن الاستقبال فى ووسونغ اكثر من ٢٢ر٩٠٠ صندوق . وادى التناقص المستمر فى الفضة بسبب انفاقها على استيراد الافيون الى هبوط فى قيمة العملة النحاسية بالنسبة للفضة — وهى مشكلة قديمة اصبحت اكثر خطورة بعد حرب الافيون ، اذ كان معدل التبديل عام ١٨٤٥ يقدر بألفى ون من العملة النحاسية مقابل ليانغ واحد من الفضة . لذلك فان الاجرة السنوية للعامل المستأجر البالغة ١٠ آلاف ون من العملة النحاسية لم تساو الا خمسة ليانغات . كما ان انتشار تعاطى الافيون على نطاق واسع قد جلب على الشعب كارثة اشد من ذلك .

وبعد فتح الموانئ التجارية الخمسة انشأ الغزاة الاجانب فيها شركات تجارية لادارة تجارتهم وتوسيع نفوذهم العدوانى . ومن بين هذه الموانئ تطور ميناء شانغهاى بسرعة . وكان البريطانيون بتحريفهم المتعمد لمعانى فقرات المعاهدة اول من اجبر موظفى اسرة تشينغ المحليين عام ١٨٤٥ على تعيين حدود منطقة على طول نهر هوانغبو لتكون " منطقة امتيازات" لبريطانيا . وفى عام ١٨٤٨ وضع الغزاة الامريكيون قبضتهم على قطاع من شانغهاى واعتبروه منطقة سكنية للامريكيين دمجت بعد ذلك فى منطقة الامتيازات البريطانية لتشكل " منطقة امتيازات دولية " . وفى عام ١٨٤٩ انتزع الفرنسيون كذلك منطقة تقع بين الجانب الشمالى من حاضرة محافظة شانغهاى ومنطقة

الامتيازات البريطانية وجعلوا منها " منطقة الامتيازات الفرنسية " . واستغل الغزاة الاجانب كل فرصة سانحة لانتزاع سلطة ادارية وقضائية وبوليسية خاصة بهم فى مناطق الامتيازات محوليها الى " دول داخل دولة " . وبعد احتلال هونغ كونغ بذل الغزاة البريطانيون جهودا كبيرة لتطويرها حتى اصبحت قاعدة هامة للعدوان على الصين . وفى عام ١٨٤٩ ايضا طرد الاستعماريون البرتغاليون الموظفين الصينيين من ماكاو ورفضوا دفع ايجارات الاراضى واحتلوا عنوة هذا الميناء الساحلى. وبهذه الطريقة ظهر لأول مرة عدد من المدن ذو طبيعة مستعمرة او شبه مستعمرة على امتداد السواحل الواقعة فى جنوب شرقى الصين .

وفى هذه المدن نشأ تجار كومبرادوريون ، استخدمت الشركات الاجنبية بعضهم مباشرة ، بينما انشأ الآخرون بأنفسهم مراكز تجارية او مخازن لبيع السلع المستوردة وشراء بضائع للاجانب من اجل التصدير ، خادمين بذلك على وجه الخصوص العدوان الاقتصادى الرأسمالى . ومع ان عددهم حتى ذلك الوقت لم يكن كافيا لتشكيل قوة اجتماعية ، الا ان نشاطاتهم ساعدت الغزاة الاجانب على توسيع تجارتهم فى مجالى الاستيراد والتصدير ، تلك التجارة التى كسب منها ايضا هؤلاء التجار الكومبرادوريون ارباحا ضخمة، واصبحوا اغنياء . وهكذا عرضت البرجوازية الكومبرادورية نفسها فى تاريخ الصين الحديثة لتكون طبقة خدمت الرأسماليين فى البلدان الامبريالية خدمة مباشرة وترعرعت على ايديهم .

ومع تقويض الرأسمالية الاجنبية لاقتصاد الصين الاجتماعي تعمق التناقض بين قوى العدوان والشعب الصيني . فقد اصبحت الموانئ التجارية الخمسة قواعد للعدوان الرأسمالي الاجنبي على الصين . واخذت المراكب الحربية الاجنبية تكثر من الابحار اليها والخروج منها والرسو فيها . وتجمع قطاع الطرق والمغامرون الاجانب في هذه الامكنة حيث اصبح النهب والقتل والجرائم الاخرى حوادث شائعة . واسوأ من هذا كله ان التجارة كانت قائمة على بيع الايدي العاملة . ففي شانغهاي وشيامن وشانتو ونانآو (في شرقي قوانغدونغ) وقوانغتشو وماكاو استخدم قطاع الطرق البريطانيون والامريكيون والفرنسيون والاسبانيون والبرتغاليون الخداع او التخويف او الاختطاف للاستيلاء على الكادحين الصينيين (الذين كانوا يدعون بـ "الكوليين" *) والابحار بهم الى امريكا الشمالية والجنوبية والهند الغربية وافريقيا واماكن اخرى للقيام بأعمال منهكة . وقام الغزاة الاجانب ايضا بتربية الرعاع والاشرار المحليين في كل مكان داخل الصين ليكونوا عملاء لهم ويمسكوا المزيد والمزيد من الكادحين الصينيين لبيعهم . وهكذا قال القنصل البريطاني السير روذرفورد آلكوك في تقرير له انه "عندما لم يعد بوسع

---

* الكولي : كلمة انجليزية ، يستعملها الامبرياليون لاهانة الذين يشتغلون اعمالا جسمانية ثقيلة من امثال الحمالين في البلدان المستعمرة وشبه المستعمرة . — المعرب

احد فى قوانغتشو ان يغادر بيته من غير ان يتعرض لخطر الاختطاف ، حتى فى الشوارع العامة وفى وضح النهار ، تحت حجج مزعومة كالدين او الحقد بين الاشخاص ، ويساق سجينا على يد المختطفين ليباع الى الممونين بالكوليين بسعر محدد ، ثم ينقل بعد ذلك الى البحر حيث لا يسمع به مرة ثانية ، عند ذلك احس سكان المدينة والمناطق المجاورة لها بالخطر العام . " * وفى شانغهاى ، القى الغزاة البريطانيون القبض حتى على بعض الكادحين الصينيين الذين دخلوا منطقة الامتيازات الاجنبية لبيع منتجاتهم الزراعية .

كانت المراكب التى نقلت العمال الصينيين المخطوفين الى خارج الصين ، والتى سماها الناس "الجهنمات العائمة" ، مسلحة تسليحا تاما . وكان العمال مسجونين فى عنابرها السفلى السيئة التهوية . وهذا وغيره من المعاملة اللاانسانية ادى الى ارتفاع فى معدل الوفيات فى البحر وصل الى ٤٥٪ . وكثيرون منهم ماتوا من شدة ما عانوا بعد وصولهم الى المناطق التى نقلوا اليها . اما الذين ظلوا احياء فقد اكرهوا على العمل واخضعوا لاستعباد واستغلال قاسيين .

ولكن العمال الصينيين المختطفين رفضوا الاستسلام ، واندلعت ثورتهم فى كل رحلة تقريبا . ففى عام ١٨٥٢ ، على سبيل المثال ،

---

* مقتبسة من كتاب هـ . ف . ماكنير : « القراءات المختارة من التاريخ الصينى الحديث » ، شانغهاى ١٩٢٧ ، ص ٤٠٩ — ٤١٠ .

تمرد اكثر من ٤٠٠ "كولى" كانوا منقولين من شيامن الى سانفرانسيسكو على متن سفينة امريكية تدعى روبرت براون ، ثم قتلوا القبطان وحاولوا ارجاع السفينة الى شيامن بالقوة . ولما تعرض تمردهم للقمع الوحشى على يد قطاع الطرق الرأسماليين ابدوا مقاومة صلبة مؤثرين الغرق مع السفينة على الاستسلام . وهذه الحادثة اظهرت شجاعة الشعب الصينى الكفاحية .

ان التغييرات التى احدثها عدوان البرجوازية الغربية والكوارث الخطيرة التى المت بالشعب الصينى إثر ذلك فى العقد الذى تلا حرب الافيون تبين اى تأثير سيئ تركته الحرب على الصين .

فبعد حرب الافيون استفاد المعتدون الاجانب ، وخاصة البريطانيين ، من الامتيازات التى كسبوها بموجب المعاهدات غير المتكافئة ، فوسعوا نهبهم الاقتصادى بكل قسوة ، مستغلين الشعب الصينى متنمرين عليه . وكانت النتيجة ان تعمق التناقض بين المعتدين الاجانب والشعب الصينى ، تلك الحقيقة الى ظهر صدقها فى النضالات الشعبية المستمرة ضد الغزاة فى الموانئ التجارية الخمسة وفى هونغ كونغ وماكاو . واطول هذه النضالات واكبرها ذلك الذى جرى فى قوانغتشو حيث عانى الشعب الكثير من اهوال الحرب .

ويعد النضال الشعبى الشهير ضد البريطانيين فى منطقة سانيوانلى فى ضواحى قوانغتشو ، انشأ اهالى المدينة والريف فى تلك المنطقة من مقاطعة قوانغدونغ منظمات شه شيوه لرفع شأن الكرامة الوطنية وحماية

انفسهم . وكانت هذه بالفعل منظمات جماهيرية مسلحة مخصصة لمقاومة العدوان .

كانت شه شيوه فى الاصل نوعا من المدارس المحلية التى تقام فى الريف لتعليم الثقافة الاقطاعية . وتطورت فيما بعد لتصبح بالتدريج قواعد اسست منها طبقة ملاك الاراضى جماعاتها المسلحة . وبعد نشوب حرب الافيون وشن الهجوم البريطانى على قوانغتشو ، وخاصة بعد نضال اهالى سانيوانلى ضد البريطانيين ، نمت شه شيوه بمحتواها النضالى الجديد نموا قويا حول قوانغتشو .

واقدم هذه المنظمات كانت منظمة شنغ بينغ شه شيوه (منظمة السلام الثقافية) فى منطقة سانيوانلى شمال غربى قوانغتشو . وفيما بعد ظهرت منظمات مشابهة لها فى مدينة قوانغتشو وفى المناطق المجاورة . ولكن شنغ بينغ شه شيوه كانت اول من نظمت قوة مقاومة مسلحة ، واصبحت فيما بعد مركزا قياديا لمثل هذه النشاطات بسبب قوتها الضخمة . ولقد شكل الفلاحون والحرفيون والمستخدمون فى الدكاكين " العضوية الاساسية " لهذه المنظمات ، بينما ساعد بعض الوطنيين من ابناء الطبقة الاقطاعية فى تأسيسها . ومن خلال هذا الشكل التنظيمى اصبحت الجماهير التى اشتركت فى النضالات التلقائية المتبعثرة ضد العدوان قوة متجمعة جبارة . وازدادت عضوية شه شيوه ١٠٠ الف متطوع على ابعد تقدير .

وقادت منظمات شه شيوه المتنفذة نضالات عديدة ضد البريطانيين .

ففى نهاية عام ١٨٤٢ ، عندما هرب بحار بريطانى الى داخل مركز تجارى اجنبى خارج قوانغتشو بعد ان ارتكب جريمة قتل ، هب عشرات الآلاف من ابناء الشعب وطوقوا المبنى واحرقوه . وفى عام ١٨٤٤ ، عندما حاول البريطانيون تعيين حدود لمنطقة تقع جنوب النهر فى قوانغتشو لتكون " منطقة امتيازات" لهم ، هب الشعب هناك للمقاومة . وذهب اكثر من ٣ آلاف متظاهر الى المركز التجارى الاجنبى للاحتجاج . فأجبر البريطانيون على وقف هذه المحاولة مؤقتا على الاقل .

كان النضال ضد دخول الاجانب الى المدينة واحدا من اضخم نضالات اهالى قوانغتشو ضد العدوان بعد انشاء شه شيوه . فقد كان التجار الاجانب القادمون الى الصين من اجل التجارة يقيمون دائما فى المراكز التجارية الاجنبية خارج قوانغتشو . ولم تسمح «معاهدة نانجينغ» للبريطانيين بدخول المدينة ، ولكنهم حرفوا معناها متعمدين واصروا على حق الدخول . وفى كانون الثانى ١٨٤٦ ، وتحت ضغط من المبعوث السياسى البريطانى السير جون ديفز ، اصدر تشيينغ نائب الامبراطور على مقاطعتى قوانغدونغ وقوانغشى مرسوما بالسماح للبريطانيين بدخول المدينة . وهذا اثار على الفور سخط الاهالى ، الذين سرعان ما مزقوا المرسوم وعلقوا اعلانات كثيرة تحذر الموظفين من انهم اذا سمحوا للغزاة بدخول المدينة فان " الاهالى المحقين سيقبضون على الموظفين ويقتلونهم ! " واندفع الآلاف من الاهالى الى مكتب ليو

شيون حاكم قوانغتشو ، ولكنه تسلق الجدار وفر هاربا ، فأحرق الاهالى الساخطون ثيابه الرسمية وقبعته وحذاءه . واصدرت شه شيوه اعلانا تدعو الاهالى فيه الى الاحتشاد فى موعد محدد لمهاجمة المراكز التجارية الاجنبية . واضطر ديفز الى الهرب الى هونغ كونغ وهكذا تلقت سياسة حكومة تشينغ فى قمع الشعب لاسترضاء الاجانب ضربة عنيفة .

وفى عام ١٨٤٧ قام البريطانيون بمحاولة اخرى لدخول قوانغتشو عن طريق التهديد باستخدام القوة . وفى نيسان وجه ديفز سفنا حربية بريطانية تحمل اكثر من الف جندى لتشق طريقها الى الانهار الداخلية عبر هومن ، وطلب من تشيينغ ثانية حق حرية الدخول . فوافق تشيينغ ، متلهفا على اخفاء استسلامه عن الجماهير ، موافقة سرية على السماح بالدخول بعد انقضاء سنتين . ولكن الاهالى مع ذلك لم يتراخوا فى يقظتهم . وفى عام ١٨٤٩ لم يجرؤ شيوى قوانغ جين ، نائب الامبراطور الذى خلف تشيينغ على مقاطعتى قوانغدونغ وقوانغشى على تنفيذ هذه الاتفاقية السرية بسبب تأجج مشاعر العداء للبريطانيين بين الاهالى . وعندما ركز السير جورج بونهام الحاكم العام البريطانى لهونغ كونغ السفن الحربية خارج هومن لاجبار حكومة تشينغ على تنفيذ الاتفاقية قاوم اهالى قوانغتشو هذا الاقتحام بعزم وتصميم . اذ نظموا داخل وخارج المدينة وفى منطقة جنوب النهر قوة مسلحة من ١٠٠ الف مقاتل ، وتدربوا ليل نهار استعدادا للقتال ، كما

ان اعضاء منظمات شه شيوه ظلوا متيقظين طيلة الوقت . واعلن التجار وقف التجارة مع المعتدين . ورفض شيوى قوانغ جين الذى اضطر الى النزول عند ارادة الجماهير طلب بونهام ، وعندها وجه الاخير وهو ساخط للغاية ، سفنه الحربية الى نهر اللؤلؤ . فاستعد اهالى الريف المجاور للقتال ، واصطف اكثر من ١٠٠ الف مقاتل على ضفتى النهر يطلقون صرخات المعركة فذعر بونهام واضطر الى التخلى عن طلبه والانسحاب الى هونغ كونغ . وارسل شيوى قوانغ جين فيما بعد مذكرة الى الامبراطور يقول فيها : " ان منع البريطانيين من دخول المدينة قد لا يعجل الحرب ، ولكن الموافقة الطائشة على طلبهم ستكون بالتأكيد سببا فى نشوب اعمال عدائية فورية . " وتظاهرت حكومة تشينغ بالاستجابة لرغبات الاهالى ، ولكنها ما فعلت ذلك فى الحقيقة الا لتفادى العاصفة الوشيكة الوقوع والنجاة بنفسها .

وتعمد الغزاة البريطانيون اثارة مسألة حرية الدخول الى قوانغتشو . واصروا على تحريف فقرات « معاهدة نانجينغ » المتعلقة بهذا الموضوع ، وذلك لتحقيق هدفهم وليبينوا ان حكومة تشينغ لا بد لها من قبول اى طلب يتقدمون به . ولكنهم لم يتوقعوا قط ان الشعب الصينى المختلف عن حكام اسرة تشينغ كليا سيرفض الخضوع للعدو مهما كانت قوته . وبعد ان فشل بونهام فى شق طريقه الى المدينة عام ١٨٤٩ ارسل تقريرا الى حكومته ذكر فيه ان الشعب والميليشيا حول قوانغتشو سيقاومون دخول البريطانيين بكل ثبات ، وان هذا الهدف لا يمكن تحقيقه

ما لم تستخدم قوة كبيرة ، لأن المقاومة الشعبية الآن اقوى مما كانت عليه خلال نشاطاتها الاولى عام ١٨٤١ . وكان هذا اعترافا بأن الغزاة سيرجئون طلبهم خوفا من قوة الشعب الصينى .

وبينما كان اهالى قوانغدونغ يواصلون نضالهم ضد المعتدين ، كان نضال الفلاحين ضد الاقطاع يتطور فى كل ارجاء البلاد ، والتناقضات الطبقية داخل الصين تنمو باستمرار الى ان اصبحت حادة جدا . وسبب ذلك يرجع الى الاثر المشؤوم الذى تركه العدوان الاجنبى ، هذا من جهة ، والى تفاقم ازمة المجتمع الاقطاعى نفسه من جهة اخرى . وقد اشار ماركس الى ذلك عام ١٨٥٣ : " ان التعويضات التى تعين دفعها لانكلترا بعد حرب عام ١٨٤٠ المشؤومة والاستهلاك الكبير غير الانتاجى للافيون واستنزاف المعادن الثمينة بواسطة هذه التجارة وتأثير المنافسة الاجنبية المتلف على الصناعات الوطنية والوضع الفاسد فى الادارة الحكومية ، كل هذه الامور قد ادت الى شيئين : الضريبة العامة اصبحت اشد وطأة وازعاجا ، واضيف اليها ضريبة جديدة " . * وامر حتمى ان تصبح التناقضات الطبقية والصراع الطبقى فى المجتمع الصينى ، والتى كانت حادة جدا قبل حرب الافيون ، اكثر حدة فى اعقاب الحرب ، ذلك ان استغلالا رأسماليا اجنبيا جديدا

---

* كارل ماركس : « الثورة فى الصين واوروبا » ، « مؤلفات ماركس وانجلز المختارة » ، المجلد الثانى .

قد اضيف الى الاستغلال الاقطاعى الوحشى القديم .

وبعد الحرب ابتزت حكومة تشينغ الشعب بكل وسيلة ممكنة كى تدفع تكاليف نفقات الحرب والتعويضات ، وقد بلغ مجموعهما ٧٠ مليون دولار فضى . واصبحت الادارة الحكومية اكثر فسادا من السابق لما مارسه الموظفون على مختلف المستويات من ابتزاز مضاعف ولما فرضوه من ضرائب اضافية مضاعفة . وعمل الوجهاء الاشرار وملاك الاراضى مع السلطات سويا لالقاء حملهم على الفلاحين . وتحت وطأة اضطهاد سياسى قاس واستغلال اقتصادى شديد ، هبت جماهير الشعب اخيرا بالثورة . وقد ذكر فى كتاب « دونغ هوا لو» (سجل تاريخ اسرة تشينغ) وحده اكثر من مائة انتفاضة قام بها ابناء قومية الهان وهوى ومياو والتبت ويى وياو وتشوانغ وغيرها ما بين عام ١٨٤١ و١٨٤٩ ، ثم انتشرت فى كل ارجاء البلاد تقريبا . واصبحت المنظمات السرية الكثيرة مثل "نيان" و"فو" و"تيان دى هوى" (جمعية السماء والارض) نشيطة بين صفوف الشعب . وهذا كله كان نذيرا بالاعصار الثورى العظيم الذى هز ارض الصين .

鸦片战争
《中国近代史丛书》编写组
*
外文出版社出版（北京）
1976年（32开）第一版
编号：（阿）11050—116
00065
11—A—1376P